الأخلاق

بين الأديان السماوية
والفلسفة الغربية

مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

الأخلاق

بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية

كريمة دوز

الطبعة الثانية

الأخلاق: بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية

تأليف: كريمة دوز

مراجعة لغوية: سليمان أبو عيسى

الطبعة الثانية: أكتوبر ٢٠١٦
مقاس الكتاب: ١٧*٢٤
عدد الصفحات: ٢٩٨
رقم الإيداع: ٢٦٩٣٥/ ٢٠١٥
الترقيم الدولي: ٢-٠٥-٦٥٤٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (مركز براهين)، وإنما بالأحرى عن وجهة نظر المؤلف.

مركز براهين للأبحاث والدراسات
أرقام المبيعات: ٠١٠٦٤٨٠٠٠٩٤(٠٠٢) – ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)
بريد المبيعات: sales@braheen.com
صفحات المبيعات: braheen_bookstore braheen.bookstore

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of Publisher.
Braheen Center for Research and Studies, Ltd.

إهداء

أهدي هذا العمل وهذا الجهد المتواضع إلى أحق الناس بصحبتي... إلى مـن حملتنـي كرهـا ووضعتنـي كرهـا... إلى مـن يبتهج قلبـي بعذوبة صوتها، منهل العطاء، وينبوع الحنان... إلى الحضن الدافئ... أمـي.

إلى أطيب قلب... وأعز مخلوق... مثلي الأعلى وفخري الأكبر... إلى من يعلو به إسمي وتزهو به نفسي... إلى أبي الغالي.

إلى من كانوا سـندا لي بعد الله وعدتي أيام شـدتي أخواني وأخواتي، وأخص منهم صفي روحي وقرين فكري أخي عبد الغفور
إلى براعم الأسرة وطلائع المستقبل أبناء أخي (عبد الرحمان، محمد علي).

إلى صديقاتي الغاليات
(آسية، عائشة، سعاد، هاجر، حفصة، مريم، حسنة، أسماء...).

إلـى هـؤلاء جميعا أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع الذي أسـأل الله عز وجل أن ينفع به الإسلام والمسلمين وصلى الله وسلم وبارك على سيد الخلق أجمعين محمد الصادق الأمين.

كريمة دوز

«مركز براهين» لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هو مركز بحثي مستقل، يعمل كمؤسسة غير ربحية مرخصة في لندن بالمملكة المتحدة، ويُعنى فقط بالعمل في المجال البحثي الأكاديمي لتوفير إصدارات متعددة (مكتوبة، مرئية، صوتية) على درجة عالية من الدقة والموضوعية والتوثيق يسعى من خلالها لتحقيق رسالته.

• رؤية المركز: عالم بلا إلحاد.

• رسالة المركز: المساهمة النوعية في تفكيك الخطاب الإلحادي ونقد مضامينه العلمية والفلسفية وأبعاده التاريخية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية وبناء التصورات الصحيحة عن الدين والإنسان والحياة ومعالجة النوازل العقدية انطلاقاً من أصول الشريعة ومحكمات النصوص كل ذلك بلغة علمية رصينة وأسلوب تربوي هادف.

BRAHEEN CENTER

for Studying Atheism
and Contemporary Issues of Faith

27 Old Gloucester Street, London,
United Kingdom, WC1N 3AX

• سياسة المركز: يعمل المركز بشكل أساسي على نقد أصول ومظاهر الإلحاد الحديث نقدا منهجيا، مع مراعاة البعد النفسي للمتلقين بمختلف فئاتهم، والحرص على تركيز النقد على الأطروحات الأساسية للخطاب الإلحادي الحديث. كما تنتهج مخرجات المركز أساليب الإفحام، والنقض، والدفاع وكذلك أساليب البناء والإقناع والهجوم وتقديم البدائل قدر الإمكان. وتنحصر مخرجات المركز بشكل رئيسي في ثلاثة مجالات عريضة: علمية، فلسفية، شرعية.

الموقع الرسمي: www.braheen.com

للتواصل والاستفسارات العامة: info@braheen.com

للتواصل مع المدير التنفيذي: ammar@braheen.com

فيسبوك: fb.braheen.com تويتر: t.braheen.com

يوتيوب: y.braheen.com انستجرام: i.braheen.com

لماذا هذا الكتاب؟!

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

فلا شك أن الإلحاد الحديث ظاهرة مخيفة، تحتاج ابتداء إلى خطة معرفية كبيرة لمواجهتها، ومن أبرز الموضوعات الرئيسية في هذه الخطة هو مبحث الأخلاق بتفريعاته، وقد شغل هذا البحثُ الفلاسفة والمفكرين على مرِّ العصور، بل يمكن اعتبار الجزء الأعظم من القرنين السابع عشر والثامن عشر كان مكرسا للتحقق من القيمة الخلقية[1]، وبالطبع تتجلى القيمة المعرفية للإنسان في سلوك يصلح من النفس والعالم، لا سيما أن الإنسان كائن أخلاقي بالطبع، سواء أخلاق جبلّيّة أو مكتسبة، بعد جهاد يرتكز على أساس معرفي أو إيماني، وكانت الأسئلة الأساسية هي: كيف يشتق الإنسان مما هو "كائن بالفعل" ما "ينبغي أن يكون"؟ وما قيمة الحكم الإنساني على الشيء بحسنه أو قبحه؟ وما مرجعه في ذلك؟ وما الغاية من هذا الالتزام الخلقي؟

يولد الإنسان وعنده استعداد سيكولوجي للالتزام بقواعد ما، فلكي يدخل في مجتمعه لابد أن يلتزم ضمنيا بقواعده، فالطفل يكتسب انطباعات ذاتية جدا عن العالم معرفيا وأخلاقيا، قبل أن يتبع القواعد المتضمنة في لغة وسلوك مجتمعه، إلى أن يندمج هذا الانطباع مع قواعد/أخلاق مجتمعه بدفع من هذا الاستعداد.[2] أما

---

(١) محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، صـ١٦.

(٢) انظر الكتاب القيم لجان بياجيه بعنوان: الحكم الخلقي عند الأطفال، ترجمة: محمد خيري حربي.

المجتمع نفسه فبحاجة إلى عُرف أو أخلاق باطنية أو دين أو فلسفة ما يتحرك على أساسها القانون، فالقانون بمفرده لا يمكن أن يسيطر على الإنسان ولا أن يجلب الخير له إلا بعد تعريف راسخ في وجدان المجتمع عن معنى الخير وجدوى الفعل الخيري، وبناء على ذلك فالأخلاق حاجة ملحة للإنسان، تجعله يوفّق بين حاجاته وحاجات الجمع، بل تجعله يخاطر بنفسه لخير يعلو خيرات آنية، لذلك فلابد أن تكون الأخلاق نفسها بحاجة إلى مصدر وجداني دائم، فهو يختار بين دين –كما فعلت جماهير بني آدم– أو فلسفة يضعها رجل ثم يهدمها غيره، وإلا فحياة بهيمية لا محالة. ومن البيّن أن الإيمان باليوم الآخر وسماوية الأخلاق أعمق وأكثر اتساقا معرفيا ونفسيا، وقد أكد كبار علماء الاجتماع على الوظيفة المهمة للدين –كدوركايم وغيره– رغم تصورهم التطوري عن المجتمعات؛ ذلك التصور الذي يقول بأن المجتمعات تطورت من الخرافة والأديان إلى المادية![٣]

أما في هذا العصر فقد نازع البيولوجيون وعلماء الأعصاب الفلاسفة واللاهوتيين في مفهومهم عن الأخلاق، وقد جلب ذلك أسئلة وحوارات طويلة عن المشكلات البشرية الكبرى؛ كحرية الإرادة، ومعنى الشر.. وغير ذلك. أما البيولوجيا فهي تهدم أي حس خلقي قطعا، وكل من يؤمن بالتطور لديه إشكال كبير للغاية مع أي نقطة أخلاقية في ضميره، فشتان بين دين يقول بأن الاهتمام بالضعفاء والإحسان إليهم سبب للنصر والرزق[٤]، وبين من لا يمتلك أدنى حجة لإدانة قتل طفل لمجرد إعاقته.

---

(٣) انظر كتاب علم الاجتماع الديني لسابينو أكوافيفيا وإنزو باتشي، ترجمة عز الدين عناية.

(٤) صحيح البخاري حديث رقم ٢٨٩٦، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

وقد اعترف الإلحاد الحديث بهذا المأزق الأخلاقي، فاعترف دوكينز بالصعوبة الكبيرة أمام تأسيس قيم على أرضية غير دينية[٥]، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج لتدليل، فالعلم الطبيعي يلعب في حقل مختلف تماما عن الضمير والوعي والمعنى.

رغم ذلك، تشهد الساحة الفكرية محاولات شرسة لبعض علماء الأعصاب والإدراك، لاختزال الأخلاق والمعارف التجريدية المعقدة في الدماغ، والحديث عن الأخلاق باعتبارها فقط استجابة عصبية سلوكية كالجوع والعطش، وهو باب شبه فارغ عربيّا، رغم المناقشات والأبحاث الكثيرة في هذا الباب.

لأجل كل ذلك، كان لابد من فتح باب البحث والتأليف في ملف الأخلاق على مصراعيه، وكان لابد في البداية أيضا من مدخل نظري لمعنى الأخلاق في الدين ومصدرها، وتأمين الدين لها بالمقارنة مع الفلسفة، كجزء تمهيدي لمعالجة هذا الفرع الهائل من زواياه المختلفة، وقد وفقت الباحثة في تقديم تلك المادة التي نسأل الله أن ينفع بها القراء، وأن يوفقنا وينفعنا وينفع بنا.

رضا زيدان

مدير قسم البحوث الفلسفية بمركز براهين

---

(٥) دوكينز، وهم الإله، صـ٢٣٢.

مُقَدِّمَة

مقدمة

الحمد لله الذي كلف رسله بهداية العالمين، وأنزل كتبه بالحق المبين، فكانت سراجًا ينير طريق المؤمنين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تعتبر الأخلاق أساس البناء الحضاري والتقدم البشري، فهي قطب الرحى، والدعامة الأساسية التي تقوم عليها حياة الفرد والمجتمع، وما سلوك الإنسان القويم إلا تعبير عن تمثله للقيم السامية التي تميزه عن الحيوان، وتخرجه من دائرة البهيمية. وقد ميَّز الله تعالى الإنسان وخصه عن سائر المخلوقات بالعقل، الذي يُحَلِّقُ بواسطته في سماء المثالية مُتحليًا بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، محققًا بذلك التوازن النفسي الذي يجعله مستمرًّا في حياته كإنسان عاقل يدرك أفعاله، ويميز بين ما هو خير وشر لإنسانيته.

لذلك جاءت الرسالات السماوية داعيةً في جوهرها إلى الفضائل الأخلاقية، ومؤكدةً على ضرورة إقامة المجتمعات على قيمٍ ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والأحوال، فكان هدفها في كل ذلك بثّ القيم والفضائل في نفس الإنسان، والسمو به إلى أعلى مراتب الفضيلة، والترفع به عن الرذائل المقيتة، فنادت كل واحدة منها بمبادئ وقيم يكمل بعضها بعضًا، إلى أن ختمها الله –جل وعلا– برسالة الإسلام على يد نبيه ﷺ، متممةً بذلك الصَّرح الأخلاقي الذي بنته الأديان الأخرى، وقد أشار النبي ﷺ لهذه الحقيقة بقوله: "إنَّما بُعثتُ؛ لأتمِّمَ مَكارمَ الأخلاقِ".[1]

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر القرطبي، تحقيق: أحمد أعراب، طبعة (١٤١١هـ–١٩٩١م)، ج(٢٤)، ص(٣٣٣).

وقد كان الرسل –صلوات الله عليهم جميعًا– يدعون أقوامهم إلى التحلي بفضائل الأعمال واجتناب المنكرات، لذلك لم تقتصر دعوتهم كما يظنُّ البعض على مجرد التوحيد وعبادة الله فقط، بل امتدت ظلالُها إلى تزكية النفس وإصلاحِها، بالنهي عن الرذائل ومحاربة الانحلال والفوضى الخُلقية، التي من شأنها أن تقضي على أخلاقية الإنسان، وما دعوة لوط عليه السلام لقومه وجميع الأنبياء الآخرين إلا خير برهان على اهتمام الأديان بإصلاح العيوب الأخلاقية، التي قد تُفسِدُ المجتمع وتمزِّق كيانَه الروحي.

وهكذا سارت الأديان السماوية موازنة بين العقيدة والعبادة والأخلاق، داعيةً إلى أخلاق ثابتة غير متقلبة بتقلب الإنسان في حياته المادية، مُستَنِدةً في ذلك على الوحي الإلهي، الذي تسير عليه في إقرار الأخلاق بين الناس، راسمةً المنهج الرباني الذي يحقق السعادة الإنسانية في الحال والمآل.

ولم تكن الأخلاق دعوة الأديان السماوية فقط، بل كانت محط اهتمام الفلاسفة الذين نحى بعضُهم بالأخلاق منحًا عقليًّا، فتضاربت آراؤهم واتجاهاتهم بين مَن أقرَّ ثبات الأخلاق، وبين من رأى فيها علمًا نسبيًّا يتغير بتغير الزمان والمكان، بل ويتبدل بحسب منافع الإنسان، وما تحققه له هذه الأخلاق من لذات وشهوات تُشبِع غريزَتَه.

وتظهر هذه الاتجاهات بجلاء في بعض المذاهب الأخلاقية في الفلسفة الغربية، التي تأثرت بالتقدم العلمي الذي وصلت إليه أوروبا بفضل العلوم التجريبية، ومِن ثَمَّ عملت على صياغة نظريات أخلاقية، تتمشى مع المادية التي أنتجت لنا إنسانًا مطبوعًا بطابع الأنانية والمنفعة والسعي وراء المادة، فبات الإنسانُ الغربيُّ –بناءً على هذه المذاهب– مضطربَ الأخلاقِ والسلوك.

من خلال هذا التباين بين الأخلاق الدينية المستندة على الوحي الإلهي، والأخلاق الفلسفية المبنية على العقل، حاولْتُ أن أصوغَ موضوعًا يتناولُ الجانبين الاثنين بالدراسة التي عنونتها بـ"الأخلاق بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية"، راجيةً من الله –تعالى– أن ينفعني وينفعكم بها.

• أهمية الموضوع

إذا كانت الأخلاق هي الركيزةُ التي تقوم عليها الحضارات وتُبنى بها الأمم، فإن دراستها تكون ضروريةً لما قد نستشفُهُ منها من مكامن القصور والخلل في تلك الحضارات أحيانًا، والازدهار والرقي في بعضها أحيانًا أخرى، بل ستكون المرآة التي نكشف بها عن جوهر الإنسان باعتبار ما يؤمن به من عقائد، أو فلسفات تُأثِّرُ فيه وفي سلوكِه الأخلاقي باعتباره جزءًا من الإطار الذي تحكمه.

كما أنَّ الواقع المعاصر وما فيه من صراعات وحروب وتَفَكُّك، يجعل من هذه الدراسةِ أمرًا ملحًّا، نستوعب من خلاله أصل الأزمة الأخلاقية الحاصرة، والانهيار القيمي في التعامل بين الأفراد والجماعات الإنسانية.

فهذه الأسباب تُعتَبَر مُبررًا موضوعيًّا؛ للاهتمام بموضوع الأخلاق في الديانات السماوية والفلسفة الغربية، لاسيما وأنَّ كل واحدة منها، قد تناولت الأخلاق من زاوية تُعاكِس فيها الأخرى، فهي وإن كانت متحدة من حيث موضوع البحث، إلا أنها قد اختلفت في نتائجه التي ستكون لها آثارُها، سواءً على الفرد أو المجتمع.

• دوافع اختيار الموضوع

أولًا: الرغبةُ في أن تكون دراستي مرتبطةً بموضوع تتقاسمه كلٌّ من الأديان السماوية الثلاث والفلسفة الغربية، ولذلك كان اختيارُ موضوع الأخلاق باعتباره جزءًا من الدراسة الدينية والفلسفية على السواء.

ثانيًا: الرغبةُ في بيان الأخلاق التي جاءت بها الأديان السماوية، ومعرفة الفضائل التي أرستها في المجتمعات التي ظهرت فيها، بالإضافة إلى بيان ما ورد في الكتب المقدسة من نصوص أخلاقية تدعو إلى مكارم الأخلاق، وتنهى عن الرذائل التي من شأنها أن تهدم الحياة الإنسانية، لتحل محلها الحياة البهيمية التي لا هم لها سوى إرواء النزوات واللذات.

ثالثًا: الرغبةُ في الوقوف على ما أنتجته الفلسفة الغربية من مذاهب أخلاقية، والتي كان لها الأثر في تشكيل الفكر الغربي وبناء حضارته.

وأخيرًا: الإسهامُ بهذا الموضوع المتواضع في إتمام الدراسات السابقة، التي انصبت جهودُها على دراسة الأخلاق في الدين والفلسفة، مع محاولة بيان الصلة التي تربط الأخلاق بكل منهما.

• إشكالية البحث

إذا كانت الأخلاق –كما رأينا– موضوع الأديان السماوية والفلسفة الغربية، فإنَّ دراستها تطرح مجموعة من الإشكالات والتساؤلات، التي يُمكننا من خلالها فَهم المسار الأخلاقي في كل منها، ومن الأسئلة الملحة التي حاول الموضوع الإجابة عنها:

- كيف عالجت كل من الأديان السماوية والفلسفة الغربية القضايا الأخلاقية؟ أو –بالأحرى–: كيف نظرت الأديان السماوية والفلسفة الغربية إلى الأخلاق؟

- وهل كان للاختلاف في مرجعية الأخلاق دور في تغير معنى الفضيلة والقيم الإنسانية؟

ولا أزعم أنني أجبت على كل ما يطرحه الموضوع من إشكالات وتساؤلات، لكنني حاولت جاهدةً أن أعرض كل الأفكار التي استطعت الوصول إليها، راجيةً من الله تعالى الإخلاص لوجهه في هذه الدراسة، كما أسأله العون والسداد، واجتناب الزلل.

• خطة البحث

اقتضت طبيعة الموضوع أن أُقَسِّمَهُ إلى مقدمةٍ وثلاثة فصول وخاتمة:

أمَّا المقدمة، فقد تطرقت فيها إلى بيان أهمية الموضوع، ودوافع البحث، بالإضافة إلى الإشكالية التي تتمحور حولها هذه الدراسة، ثم أتبعتها بخطة العمل، والمنهج المتبع، والدراسات السابقة، وأخيرًا ذكرت أهم الصعوبات التي واجهتني في إعداد الموضوع.

- الفصل الأول: عنونته بـ"مقدمات في علم الأخلاق"، وقسمته إلى أربعة مباحث؛ تناولت في المبحث الأول تعريف علم الأخلاق، وتطرقت في المبحث الثاني إلى بيان موضوع وغاية هذا العلم، أمَّا المبحث الثالث فقد أبرزت فيه طبيعة هذا العلم، والمبحث الرابع أُبرز فيه العلاقة التي تربط الأخلاق بالدين والفلسفة.

- الفصل الثاني: عنونته بـ"الأخلاق في الأديان السماوية الثلاث"، وقسَّمتُهُ إلى ثلاثة

مباحث؛ تطرقت في المبحث الأول إلى دراسة الأخلاق في الديانة اليهودية، وفي المبحث الثاني تناولت الأخلاق في الديانة المسيحية، أمّا المبحث الثالث فقد سلطت فيه الضوء على الأخلاق في الإسلام.

- الفصل الثالث: عنونته بـ"الأخلاق في الفلسفة الغربية"، وقسمته إلى ثلاثة مباحث؛ تناولت في المبحث الأول الأخلاق في الفلسفة اليونانية، وتطرقت في المبحث الثاني إلى الأخلاق في الفلسفة الهلنستية، أمّا المبحث الأخير فقد خصصته لدراسة الأخلاق في الفلسفة الحديثة.

- الخاتمة: تناولت فيها أهم الخلاصات والاستنتاجات التي خرجتُ بها من هذا البحث.

• منهجية البحث

لقد بذلت وسعي أن أتبع منهجًا علميًّا يتوخَّى الموضوعية، غير مشوبٍ بالتعصب والتحيز لرأي معين؛ فحرصت أن أدرس كل جزئية من جزئيات البحث دراسةً غير صادرةٍ عن رأي أنتصر له، أو فكرة أتحمس لها، وقد اقتضت طبيعة البحث أن أنهج منهجين:

المنهج الوصفي التحليلي: وذلك بعرض الأفكار وتحليل مضمون النصوص الفلسفية والدينية وفق خطة منهجية؛ قصد الوقوف على جزئيات الموضوع، والكشف عن حقائقه في كل من الأديان السماوية والفلسفة الغربية.

المنهج المقارن: وذلك بمقارنة قضايا أخلاقية تشترك أحيانًا بين الأديان السماوية، وأحيانًا أخرى بين آراء الفلاسفة.

• الدراسات السابقة

ليس موضوع الأخلاق في الأديان السماوية والفلسفة الغربية بالأمر الجديد، بل إن دراسة الأخلاق لقيت حظًّا وافرًا من عناية الباحثين والكتَّاب؛ فمنهم من تناول هذه القضية من الجانب الفلسفي، فأخذ يبحث في المذاهب الفلسفية الغربية مستعرضًا ما جاء فيها من نظريات أخلاقية؛ أمثال "أندريه كريسون"، الذي حاول من خلال كتابه "المشكلة الأخلاقية والفلاسفة" أن يعرض التطور التاريخي الذي مرَّت به الأخلاق منذ الفلسفة اليونانية إلى المذاهب الأخلاقية الحديثة، وكذلك مؤرخ علم الأخلاق "هـ.سدجويك"، الذي عرض من خلال كتابه "المجمل في تاريخ علم الأخلاق" جل المذاهب الأخلاقية التي عنت بالدرس الأخلاقي في أوروبا، وتجدر الإشارة أن الكاتبين لم يغفلا عن تناول الأخلاق التي طبعت كلا من الديانة اليهودية والمسيحية.

أما فيما يتعلق بالدراسات التي تناولت الأخلاق من الجانب الديني؛ فقد استفدت من دراسة "عبد الله دراز" للأخلاق، من خلال كتابيه: "دستور الأخلاق في القرآن"، و"مدخل إلى القرآن الكريم"؛ حيث قام في هذا الأخير بمقارنة بين الأخلاق الواردة في كل من الديانة الإسلامية والأخرى الواردة في اليهودية والمسيحية، ولا نَغفل عن الدراسات المعاصرة، التي تناولت الأخلاق من الجانبين؛ الديني والفلسفي، والمتمثلة في دراسات "طه عبد الرحمن" من خلال كتابيه: "سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية"، وكذلك كتابه "بؤس الدهرانية: النقد الانتمائي لفصل الأخلاق عن الدين".

وقد حاولت من خلال هذه الدراسات أن أصوغ فكرة عامة حول الموضوع تساعدني على الإحاطة بجوانبه المتشعبة، محاولة التركيز على الديانات الثلاث، بالإضافة إلى دراسة الأخلاق عند بعض الفلاسفة الغربيين.

• صعوبات البحث

لا يخلو أي بحث من صعوبات قد يتعرض لها الباحث في دراسة موضوعه، سواء تعلَّق الأمر بجمع المادة العلمية التي يحتاجها الباحث في دراسته، أو أجزاء الموضوع التي يستعصي فهمها أحيانًا أخرى، ومن أبرز الصعوبات التي ظهرت في طريق البحث:

١) تعقد الموضوع وتشعبه، بسبب توسع دائرة الأخلاق، وتتعدد مشكلاتها سواء في الأديان السماوية أو الفلسفة الغربية.

٢) صعوبة التعامل مع بعض النصوص الفلسفية التي تحتوي على مصطلحات تستعصي على أي باحث غير مُلِم بالفلسفة ومواضيعها المتشعِّبة، الأمر الذي يضطرني للرجوع إلى المعاجم الفلسفية؛ قصد الاطلاع على كنه تلك المصطلحات.

هذا وقد كان في إشراف الأستاذ الفاضل/ سيدي محمد زهير –حفظه الله تعالى– عونًا على الصبر وتجاوز الصعوبات، فله جميل الشكر على ذلك، ولله الحمد الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

وبالله التوفيق

الفصل الأول
مقدمات في علم الأخلاق

- وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف علم الأخلاق

المبحث الثاني: علم الأخلاق موضوعه وغايته

المبحث الثالث: الأخلاق بين النظر والعمل

المبحث الرابع: الأخلاق بين الدين والفلسفة

مقدمات في علم الأخلاق

لا تخلو ثقافة إنسانية من أخلاق، كما لا يوجد فكر إنساني لم يبحث في أغوار النفس والسلوك البشري، فكل فردٍ في هذا العالم يتطلع إلى تحسين طباعه والرقي بها إلى الكمال، سواء كان مستنده في ذلك الدين أو الثقافة المشاعة في بلده.

فالفكر الأخلاقي ملازم للتاريخ الإنساني، إنَّه السجل الذي يُرجع إليه؛ لمعرفة أخلاقيات الفرد أو الجماعة من ناحية، ولمعرفة التاريخ الأخلاقي للأمم والشعوب من ناحية أخرى؛ فهو يؤرِّخُ للتحضر الأخلاقي من جهة، ولمكامن الخلل في أخلاقيات بعض الجماعات من جهةٍ أُخرى.

وفي حديثنا عن الأخلاق في الأديان السماوية والفلسفة الغربية، لا يسعُنا أن نمرَّ دون أن نبسُطَ الموضوع بالحديث عن العلم الذي يدرس الأخلاق، مبرزين ماهيته والموضوع الذي يدرسه، وما هي الغاية التي يهدف إليها، وهل هو من قبيل العلم النظري الذي أساسه المعرفة والنظر، أم من قبيل العلم العملي الذي من شأنه العمل بما يعلم، بعد بيان كل هذا سننتقل إلى دراسة شق يعتبر بمثابة القاعدة التي ستُبنى عليها الفصول القادمة، والمتمثل في علاقة الأخلاق بالدين والفلسفة.

المبحث الأول

تعريف علم الأخلاق

مما لا شك فيه أنَّ علم الأخلاق من العلوم الضرورية، التي اهتمَّت بها الأديان والفلسفات، فخصَّته بمباحث وفصول تعالج القضايا الكبرى التي تنطوي تحته؛ كالخير والشر، والسعادة والتعاسة، والفضيلة والرذيلة، وغيرها من المباحث الأخلاقية التي توجِّه الفرد والمجتمع، لكن قبل أن ندرس موضوع الأخلاق في الأديان السماوية والفلسفة الغربية، لابد من الاطلاع على كنه هذا العلم بتعريفه في بداية الأمر.

المطلب الأول: تعريف علم الأخلاق باعتبار المركب الإضافي

إنَّ الحديث عن "علم الأخلاق" يستوجب منا في البداية تعريف أجزائه باعتباره مركب من كلمتين اثنتين؛ وهما: "العلم"، و"الأخلاق"؛ لذلك سنقف عند كل منهما مبينين معانيهما في كل من اللغة والاصطلاح.

الفرع الأول: تعريف العلم

أولًا: العلم لغةً:

بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية نجد أن كلمة "عِلْم" من أصل ثلاثي مادته: العين واللام والميم، وهو مصدر عَلِم التي معناها عرف. قال "ابن فارس": "العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر الشيء يتميز به عن غيره (...) والعِلْم نقيض الجهل".[٢]

---

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، (بدون طبعة)، باب "العين"، مادة "علم"، ج(٤)، ص(١٠٩-١١٠).

وجاء في "لسان العرب" لابن منظور: "من صفات الله –تعالى– العَلِيم والعَالِم والعَلَّام، قال تعالى: (هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ)[٣]، وقال: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)[٤]، وقال: (عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)[٥]"، وفي موضع آخر: "والعِلم نقيض الجهل"[٦].

وقال محمد الرازي: "العَلَم بفتحتين (العلامة) وهو أيضًا الجبل، و(عَلَمُ) لثوب والراية، وعلم الشيء بالكسر عرفه".[٧] وزاد على ذلك المصنف في "البصائر" كما جاء في "تاج العروس": "وعلم به كسَمِع، شَعَر، صريح في أن العِلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد، وأنه يتعدى بنفسه في المعنى الأول، وبالباء إذا استعمل بمعنى شعر، وهو قريب من كلام أكثر أهل اللغة".[٨]

وبالنظر إلى هذه المعاجم وغيرها نجد أنها "وُضِعَت لضبط الألفاظ لا لتحديد المعاني، وأن مهمتها هي تقويم اللسان، لا تثقيف الجنان، ومن شاء أن يتوسع في حدود هذه المهمة شاع له أن يقول: إنها وضعت أيضًا لسرد المترادفات والمتقابلات، وتقديمها لمن يفرض فيه أنه يعرف معنى كل مفرد على حدة".[٩]

---

(٣) سورة الحجر، الآية (٨٦).

(٤) سورة السجدة، الآية (٦).

(٥) سورة المائدة، الآية (١١١).

(٦) لسان العرب، ابن منظور، دار الصادر، بيروت – لبنان، (بدون طبعة، بدون تاريخ)، حرف "الميم"، مادة "علم"، ج(١٢)، ص(٤١٦).

(٧) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، (١٩٨٦م)، (بدون طبعة)، باب "العين"، مادة "علم"، ص(١٨٩).

(٨) تاج العروس في جواهر القاموس، الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت(١٣٨٥هـ–١٩٦٥م)، (بدون طبعة)، باب "الميم"، مادة "علم"، ج(٣٣)، ص(١٢٦).

(٩) الدين، بحوث ممهدة في تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار القلم، القاهرة – مصر، الطبعة الثالثة (١٤٣١هـ–٢٠١٠م)، ص(٥٦).

وهذا ما نقابله في تعريف العِلْم في القواميس اللغوية؛ حيث نجده مترادفًا مع المعرفة ومقابلًا للجهل، وإذا ما رجعنا إلى معنى المعرفة في اللغة نجدها هي الأخرى تعني العِلْم، فهل العِلْم إذن هو المعرفة؟ وهل المعرفة هي العِلْم؟

هذا السؤال المحوري، لا يمكن الإجابة عنه ولا فهمه إلا باستقراء ما ورد عن ماهية العلم في اصطلاح العلماء.

ثانيًا: العلم اصطلاحًا:

تنوعت تعريفات العلماء وتشعبت آراؤهم في مفهوم العلم وحدِّه، حتى قيل: "إنَّ كلمةَ العِلْمِ من جملة الكلمات التي لها استعمالات متنوعة ومُوقِعة في الاشتباه".(١٠)

فالعِلْم مرادف للمعرفة connaissance، "إلا أنَّه يتميز عنها بكونه مجموعة معارف متصفة بالوحدة والتعميم، ويقال: إن مفهوم العلم أخص من مفهوم المعرفة؛ لأن المعرفة قسمان: عامية (vulgaire)، ومعرفة علمية (scientifique)، والمعرفة العلمية أعلى درجات المعرفة، وهي التعقل المحض".(١١)

ومن جملة التعريفات التي عُرِّف بها العِلم أيضًا: "أنَّه الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخص من الثاني، وقيل العِلْم: هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم والجهل

---

(١٠) المنهج الجديد في الفلسفة، محمد تقي مصباح اليزيدي، ترجمة: عبد المنعم الخافقي، دار التعارف، بيروت – لبنان (١٤١١هـ–١٩٩٠م)، (بدون طبعة)، ج(١)، ص(٥٤).

(١١) المعجم الفلسفي، جمال صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان (١٩٨٢م)، (بدون طبعة)، ج(٢)، ص(٩٩).

نقيضه، وقيل: العِلْم صفة راسخة يدرك بها الكليات والجزئيات، وقيل: العِلْم وصول النفس إلى معنى الشيء، وقيل: عبارة عن إضافة مخصوصة بين العقل والمعقول، وقيل: عبارة عن صفة ذات صفة".[١٢]

وقد اختلف العلماء في حدِّ العِلْم؛ "فذهب بعضهم إلى القول بأنَّ العلم ليس له حد، وهو رأي كل من إمام الحرمين الجويني (ت: ٤٧٨هـ)، والإمام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)"[١٣]، في حين أنَّ الكثيرين رأوا إمكان حده؛ فقد حده الباقلاني (ت: ٤٠٢هـ) والباجي (ت: ٤٧٤هـ) بأنه: "معرفة المعلوم على ما هو به".[١٤]

ولكن، وإن لم نحصل على حد قاطع للعِلْم من خلال هذه التعريفات "لن نعدم معرفة مميزة للعِلْم، عمّا سِواه من التصرُّفات الشعورية؛ فهو: نوع من المعرفة، بل درجة من درجاتها العليا، التي تختصُّ بأنها جازمة مطابقة، وقد حصل هذا التطابق الجازم بفعل الذات العارِفة، أو العالِمة، بغض النظر عن مصدره ومجاله، مع قيد أن هذا التطابق والجزم إنما هو بحدود الطاقة البشرية، وذلك تفاديًا للإطلاق الذي يتجاوز حدود الطاقة البشرية تحصيله"،[١٥] فالعِلم إذن هو جزء من المعرفة، أو بالأحرى هو أعلى درجات المعرفة، وهو الإدراك الجازم المطابق للواقع، ليكون بذلك

---

(١٢) معجم التعريفات، الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة – القاهرة، ص(١٣٠)، وكشاف اصطلاحات الفنون، التهناوي، ج(٢)، ص(١٢١٩).

(١٣) مصادر المعرفة في الفكر الديني الفلسفي (دراسة نقية في ضوء الإسلام)، عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مكتبة المؤيد، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ–١٩٩٢م)، ص(٤٥).

(١٤) الحدود في الأصول، أبو الوليد سليمان ابن خلف الباجي الأندلسي، تحقيق: نزيه حماد، مؤسسة الزعبي، بيروت – لبنان (١٣٩٣هـ–١٩٧٣م)، (بدون طبعة)، ص(٢٤).

(١٥) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي – دراسة نقدية في ضوء الإسلام، عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مكتبة المؤيد، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ–١٩٩٦م)، ص(٤٦–٤٧).

العِلم مناقضًا للجهل.

لكن إذا ما انتقلنا إلى تعريف العِلْم في الفلسفة المعاصرة وخصوصًا في المذهب الوضعي[١٦]، سنجد أن العِلْم أصبح خاصًّا بكل ما يخضع للتجرِبة، وأنَّ ما وراء الطبيعة لا يدخل في دائرة العلم؛ فقد عرَّفه "أوجست كونت"[١٧] بقوله: "العلم بالمعنى الصحيح هو معرفة القوانين الحقيقية للظواهر الطبيعية، ولا طريقة له إلا التجربة".[١٨] وعرَّفه "إميل بوترو" (١٨٤٥ – ١٩٢١م) بأنه: "مجموعة المعارف الوضعية[١٩] التي حصلها الإنسان".[٢٠]

---

(١٦) المذهب الوضعي: مذهب فلسفي أسسه "أوجست كونت"، يقرِّر هذا المذهب أنَّ فكر الإنسان لا يدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، وأن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية، وأنه يجب من ثمة العدول عن كل بحث في العلل والغايات، ويدلل "كونت" على نسبية معارفنا بعرض تاريخ العقل، فيقول: إن العقل مرَّ بثلاث مراحل: حال لاهوتية، وحالة ميتافزيقية، وحالة واقعية، وقد عرض "كونت" مذهبه في أربعة كتب: (Cours de philosophies positive, discours sur l'esprits positif, catéchisme positive, systéme de politique positive) (للمزيد ينظر: المعجم الفلسفي، مراد وهبة، ص(٦٨٥)).

(١٧) أوجست كونت (١٧٩٨ – ١٨٥٧م): فيلسوف فرنسي، مؤسس الفلسفة الوضعية، وهذا النوع من الفلسفة يرى ضرورة تنظيم معلومات الإنسان عن العالم وعن الإنسان وعن الجمعية، وجعلها كلها مجموعًا يلائم بعضه بعضًا، وأنه لا يصح تأسيس علم ما إلا على المشاهدات الخارجية، وكان غرضه في الحياة أن يكون مُصلِحًا للفكر؛ ليصلح العمل. (مبادئ الفلسفة، أ.س رابوبرت، ترجمة: أحمد أمين، ص(١٣٥)).

(١٨) المدخل إلى الفلسفة، ازفلد كوليد، ترجمة: أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة – مصر، ط: (١٩٤٦م)، ص(١٨٨).

(١٩) المعارف الوضعية: (هي تلك المعارف المبنية على الواقع والتجربة، ويرى أصحاب الاتجاه الوضعي – وعلى رأسهم "أوجست كونت"– أن العلوم التجريبية، هي التي تحقق المثل الأعلى لليقين، وأن الفكر البشري لا يستطيع أن يجتنب اللفظية والخطأ في العلم إلا إذا اتصل بالتجربة، ولذلك سعى المذهب الوضعي على تعويض التفسير اللاهوتي الذي يقوم على السببية المتعالية، والتفسير الميتافيزيقي الذي يقوم على تصور بسيط واحد، بالتفسير الوضعي الذي يقوم على القانون.(ينظر: المعجم الفلسفي، كمال صليبا، ج(٢) ص(٥٧٩)، و معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد، ص(٤٨٧)).

(٢٠) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، إميل بوترو، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة

فالعلم –حسب أصحاب هذا الاتجاه– محصور فيما كان قابلًا للتجربة وما يثبت عن طريقها، أما ما لا يخضع للتجربة فليس من قبيل العلم.

وبناءً على هذه الرؤية في مفهوم العلم وحده، اعتبر مجموعة من الفلاسفة –الذين ينتمون إلى المذهب الوضعي– علم الأخلاق من قبيل العلوم الوضعية[٢١]، التي من شأنها دراسة الأخلاق بوصفها في بيئة معينة كما سيتبين لنا.

الفرع الثاني: تعريف الأخلاق

أولًا: الأخلاق في اللغة:

بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية نجد أن لفظ (الأخلاق) من أصل ثلاثي مادته: الخاء واللام والقاف، وهو جمع خُلْق أو خُلُق بضمتين، الذي يعني الطبع والسجيَّة، وقيل: هو المروءة والدين.

قال "ابن منظور": "الخلق بضم اللام وسكونها، وهو الدين والطبع والسجيَّة، وحقيقته أنَّه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حُسْن الخُلُق في غير موضع[٢٢] من أحاديث رسول الله ﷺ".[٢٣]

للكتاب، القاهرة – مصر(١٩٧٣م)، (بدون طبعة)، ص(٩).

(٢١) ينظر: الفصل الثالث، ص(٢٣٨).

(٢٢) من ذلك قوله ﷺ: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسْن الخُلُق، وإنَّ صاحب حُسْن الخُلُق؛ ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة"، الصغير، السيوطي، رقم الحديث (٨٠٤٧).

(٢٣) لسان العرب، ابن منظور، حرف "ق" مادة "خلق"، ج(١٠)، ص(٨٦–٨٧).

وقال "الرازي": "الخلق بسكون اللام وضمها السَّجِيَّة، وفلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه"[٢٤]، وفي تاج العروس: "الخلق بالضم والضمتين: السجية، وما خلق عليه الطبع".[٢٥]

وقد بين "الراغب الأصفهاني" الفرق بين الخَلْق والخُلْق قائلًا: "الخَلْق والخُلُق في الأصل واحد كالشَّرْب والشُّرْب والصَّرْم والصُّرْم، لكن خُص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المُدرَكة بالبصر، وخص الخُلْق بالقوى والسجايا المُدرَكة بالبصيرة".[٢٦]

وإذا ما دققنا في تعريف كلمة الخُلُق في اللغة، سنجد أنَّ معناها عام وفضفاض ينطوي تحته القبيح من الأفعال والحسن منها، فيقال فلان ذو خُلُق حَسَن وفلان ذو خُلُق قبيح.

ويقابل كلمة (أخلاق) في اللغات الأوروبية "كلمة Morale بالفرنسية، وMorals بالإنجليزية، وMoral بالألمانية، وMorale بالإيطالية، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Moros جمع Mos، ويناظرها في اليونانية Ethos ومعناها العادة، ومن هذه الكلمة جاء المعنى الآخر للأخلاق وهو Ethice في اللاتينية، وEthica بالإيطالية، وéthique بالفرنسية، وEthics بالإنجليزية، وEthik بالألمانية".[٢٧]

---

(٢٤) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، ص(٧٨–٧٩).

(٢٥) تاج العروس من جواهر النفوس، محمد مرتضى الزبيدي، ج(٢٥)، ص(٢٥٧–٢٥٨).

(٢٦) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، حرف الخاء، مادة (خلق)، تحقيق: بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – السعودية، (بدون طبعة، بدون تاريخ)، ج(١)، ص(٢١٠).

(٢٧) المرجع في تاريخ الأخلاق، محمد عبد الرحمن مرحبا. جروس بريس، طرابلس – لبنان، الطبعة الأولى

وتعني كلمة Morale بالفرنسية: مجموعة القواعد العملية والقيم، التي توظَّف كمعيار داخل المجتمع.

"Ensemble de règles d'action et des valeurs qui fonctionnent comme normes dans une société".(28)

أمَّا كلمة éthique فتعني العادة mœurs، وهي مجموعة خاصة من قواعد السلوك، وتمثل الجانب النظري من علم الأخلاق.

"Ensemble particulier de règles de conduite. Parti théorique de la morale".(29)

وقد لا نغالي إن قلنا: إن تعريف الخُلُق في القواميس اللغوية العربية يبقى واسعًا؛ لكونه يدل على معنيين اثنين كل منهما يختلف عن الآخر ويناقضه، ومن هنا يتوجب علينا أن ننتقل إلى التعريف الاصطلاحي لكلمة خُلُق.

ثانيًا: الخلق اصطلاحًا:

بعدما تبين لنا معنى الخُلُق في اللغة، ننتقل للحديث عن معناه في اصطلاح العلماء؛ فقد عرفه "مسكويه"(٣٠) (ت: ٤٢١هـ) بقوله: "الخُلُق حالٌ للنفس داعية لها

(١٩٨٨م)، ص(٣١).

(٢٨) petit Larousse illustré, éd : librairie Larousse, paris(1985), mot : «morale », p(654)

(1) Ibidem, p(387).

(٣٠) مسكويه (ت: ٤٢١هـ): وهو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه من فلاسفة الإسلام، الذين جمعوا بين ثقافة الإغريق وثقافة الإسلام، وضموا طرفًا من حكمة الروم والهند إلى حكمة العرب والفرس. (ينظر: فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلتها بالفلسفة الإغريقية، محمد يوسف موسى، مطبعة الرسالة، الطبعة الثانية (١٣٦٤هـ–

إلى أفعالها من غير فكر ولا روية".[٣١]

فالخُلُق –حسب "مسكويه" (ت: ٤٢١هـ)– طبيعة في النفس البشرية؛ حيث تصدر الأفعال والتصرفات عنها من غير تفكر ولا نظر.

وهو نفس التعريف الذي ذهب إليه "الغزالي" (ت: ٥٠٥هـ)؛ حيث قال: "فالخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا، سميت تلك الهيئة خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خُلُقًا سيئًا".[٣٢]

وقد وضَّح "الجرجاني" (ت: ٨١٦هـ) معنى الهيئة الراسخة قائلًا: "وإنَّما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور حالة عارضة لا يقال: خُلُقُه السخاء، مالم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال: خُلُقه الحِلْم، وليس الخُلُق عبارة عن الفعل، فرُبَّ شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إمَّا لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خُلُقُه البخل وهو يبذل، لباعث أو رياء".[٣٣]

فالخلق طبيعة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة وبدون تكلف، فالذي

١٩٤٥م)، ص(٧٠)).

(٣١) تهذيب الأخلاق، مسكويه. تحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل، بيروت – لبان، الطبعة الأولى (٢٠١١م)، ص(٢٦٥).

(٣٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي. تقديم: بدوي طبانة، مطبعة كرباطه فوترا، سماراغ، إندونيسيا، ج(٣)، ص(٥٢).

(٣٣) معجم التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص(٨٩).

يتكلف في فعل أمرٍ حسنٍ لا يُسَمَّى باطن فعله حسنًا؛ لأن ذلك لم يثبت في نفسه، وكذلك الذي يصدر عنه فعل قبيح اضطرارًا فلا يسمَّى باطن فعله كذلك؛ لأن الأصل في نفسه أن تصدر عنها الأفعال الحسنة.

وخلاصة القول في تعريف الخُلُق أنه هيئة راسخة في النفس، يطلق على الحسن والقبيح من الأفعال، فإذا كانت الأفعال موافقة للعقل والشرع سميت الأخلاق حسنة، وإذا كانت الأفعال الصادرة عن النفس مخالِفة للعقل والشرع سميت أخلاقًا قبيحة؛ بحيث يكون سلوك الإنسان هو التطبيق العَمَلي الذي يحدد طبيعة الخلق.

المطلب الثاني: تعريف علم الأخلاق

يُعرَّفُ علم الأخلاق عادةً بفلسفة الأخلاق، جاء في "المعجم الفلسفي": "يسمَّى علم الأخلاق (la Morale) بعلم السلوك، أو تهذيب الأخلاق، أو فلسفة الأخلاق (Ethique)، أو الحكمة العملية، أو الحكمة الخلقية".[٣٤]

وقد عرَّفه مسكويه (ت: ٤٢١هـ) بقوله:" علم الأخلاق علم بأصول يعرف به حال النفس، من حيث ماهيتها وطبيعتها، وعلة وجودها، وفائدتها، وما هي وظيفتها التي تؤديها، وما الفائدة من وجودها، وعن سجاياها وأميالها، وما ينقلها بسبب التعاليم عن الحالة الفطرية"[٣٥]، فعلم الأخلاق على هذا الاعتبار عِلمٌ يبحث في النفس الإنسانية وما يتعلق بها.

وهناك من أطلق عليه علم العادات، مُستنِدًا في ذلك إلى تعريفه اللغوي، وعلى الأصل الإغريقي لكلمة أخلاق Ethos، التي تعني عادة mœurs، وعليه كان علم

(٣٤) المعجم الفلسفي، جمال صليبا، ج(١)، ص(٥٠).

(٣٥) تهذيب الأخلاق، مسكويه. تحقيق: عماد الهلالي، ص(١١).

الأخلاق هو: "العلم الذي يبحث في عادات الناس واعتياداتهم، أو بعبارة أخرى في سجاياهم وأخلاقهم، وفي المبادئ التي اعتادوا عليها، والأسباب التي تجعل هذه المبادئ حقًّا أو باطلًا، خيرًا أو شرًا".[٣٦]

لكن يبقى هذا التعريف عامًا؛ لكونه يدرس عادات الناس التي من شأنها أن تكون حسنة أو قبيحة، وهذا ما يشابه دراسة الظواهر الاجتماعية استنادًا إلى واقع معين وعلم الأخلاق بوصفه علم عادات داخل في فروع علم الاجتماع.

ولهذا فصل ليفي بريل Lucien Lévy-Bruhl [٣٧] وأستاذه إميل دوركايم [٣٨] Émile Durkheim علم الاجتماع عن الفلسفة، وأطلق عليه اسم (علم العادات)، إشارةً إلى أن الأخلاق هي دراسة موضوعية تجريبية لقوانين العادات الخلقية عند الإنسان.[٣٩]

---

(٣٦) أصول الأخلاق، ي.دني، ترجمة إبراهيم رمزي، المطبعة السلفية – مصر، ص(٦).

(٣٧) ليفي بريل (١٨٥٧ – ١٩٣٩م): فيلسوف فرنسي، اهتم بالمسائل المتعلقة بالأخلاق والتاريخ والفلسفة، فشغلته فكرة فصل الأخلاق عن الميتافيزيقا، بردها إلى تجربة خليقة بإعطاء قواعد موضوعية للسلوك، وقد تجاوز معاصريه في هذا المضمار، إذ لم يتردد لحظة –من خلال كتابه (الأخلاق وعلم العادات)– في الجزم بوجود وقائع أخلاقية خاضعة لقوانين مطلقة شبيهة تمامًا بتلك التي تتحكم بالظواهر الفيزيائية والبيولوجية، لهذا السبب لم ينظر إلى الأخلاق على أنها علم معياري، بل كان ينظر إليها باعتبارها فنًا عمليًا عقليًا. (ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة (٢٠٠٦م)، ص(٦٠٩)).

(٣٨) إميل دوركايم (١٨٥٨ – ١٩١٧م): فيلسوف فرنسي، ومؤسس المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع، اعتنى بتدريس علم الاجتماع والتربية، وله عدة مؤلفات؛ من بينها: التربية الأخلاقية، والانتحار، وقواعد المنهج في علم الاجتماع. (ينظر: قواعد المنهج في علم الاجتماع، إميل دوركايم، ترجمة: محمود قاسم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية – مصر (١٩٨٨م)، (بدون طبعة)، ص(٣ وما بعدها)).

(٣٩) الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، مصطفى حلمي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م)، ص(١٧).

فعالم الأخلاق –حسب "ليفي بريل" في كتابه (الأخلاق وعلم العادات)– يدرس الإنسان في عصره وبلده دون أن يعير الاهتمام بما يجب أن يكون عليه السلوك الإنساني، فمهمة عالم الأخلاق هي الوصف فقط.

"Le moraliste se proposait la «connaissance de l'homme» en général :il étudiait presque exclusivement l'Homme de son temps et de san pays(40)."

وهناك من عرَّف علم الأخلاق بعلم الإنسان (أمثال باسكال(٤١)، والمقصود بهذا أن الأعمال التي هي مناط البحث والحكم الأخلاقي هي أعمال الإنسان).(٤٢)

كما اعتبر علم الأخلاق من قبيل العلم الذي يجيب عن تساؤلات الخير والشر، والسعادة والتعاسة، والطريقة التي يجب أن يسلكها الناس.

"Morale /Ethéque: désignent les questionnements sur le bien et le mal , le bonheur et le malheur et la façon dont les hommes se conduisent".(43)

---

(40) La morale et la science des mœurs, Levy–Bruhl. Edition: press univérsitaires de France, Paris(1971) ,p(168)

(٤١) بليز باسكال (١٦٢٣ – ١٦٦٢م): عالم وكاتب ومفكر فرنسي، اشتهر باشتغاله في مجال الفيزياء والرياضيات، من أشهر مؤلفاته "خواطر باسكال"؛ وهو عبارة عن شذرات وملحوظات موجزة سجلها باسكال في أوراقه تمهيدًا لأن يصوغ منها كتابًا منتظمًا بتمهيد وفصول وأبواب، غير أنه مات قبل أن ينجز قصده، والكتاب مطبوع ومترجم باللغة العربية، (ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص(١٧٨ وما بعدها)).

(٤٢) ينظر: مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، مطبعة الأزهر، القاهرة – مصر، ط:(١٣٦٢هـ– ١٩٤٣م)، ص(٤).

(43) Philosophie auteurs et thèmes, C Audard et autres, éditions sciences humains, Auxerre, (2012), p(9).

وهناك من خصّه بالبحث في الواجب فعلم الأخلاق "هو دراسة الواجب والواجبات[٤٤]؛ لأنه يهدينا لما علينا من واجبات نحو أنفسنا وغيرنا وخالقنا".[٤٥]

غير أن صياغة التعريفين –وإن كانت صحيحة– تبقى غير منطقية؛ لكون علم الأخلاق لا يدرس الخير والشر بمعزل عن دراسة الواجب، ولا يدرس الواجب بمعزل عن الخير والشر.

وفي هذا الصدد يقول "محمد يوسف موسى": "فدراسة الخير والشر لا تُغني عن دراسة الواجب الذي نسير على هديه، ولا عن دراسة الواجبات التي علينا أن نقوم بها، كذلك دراسة الواجب والواجبات ليست كافية لتحديد الأخلاق، التي تبحث أيضًا في الخير والشر وماهية كل منهما، والمقاييس التي تزن بها الأعمال لبيان خيرها وشرها".[٤٦]

بالإضافة إلى ذلك، فإن علم الأخلاق علم معياري؛ [٤٧]normative "أي لا

---

(٤٤) ذهب إلى هذا القول كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤م): وهو من أكبر فلاسفة ألمانيا وأحد سادة التفكير الإنساني، وهو الذي رأى أن يأخذ في امتحان العقل الإنساني؛ ليعرف مدى قدرته على تعرف الحقائق، فأخضعه لهذا الامتحان الدقيق، ومن هنا عرف مذهبه بمذهب الفلسفة النقدية، وهذا المذهب يلخصه في ثلاثة كتب من أهم مؤلفاته وهي ١) انتقاد العقل النظري الخالص، ٢) نقد العقل العملي، ٣) نقد قوة الحكم، والكتاب الثاني يدرس بعمق كبير مشكلة السلوك ومسائل الحق والخير. (ينظر: في تاريخ الأخلاق، محمد يوسف موسى، ص(٢٠٢)).

(٤٥) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى. مرجع سابق، ص(٤).

(٤٦) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٤٧)العلوم المعيارية: هي تلك التي يتشكل موضوعها من أحكام قيمية، بوصفها هذا، أي بقدر ما يكون نقد هذه القيمة هدف العلم المسمى بذلك، وهي عند "ووندت": العلوم التي تهدف إلى صوغ القواعد والنماذج الضرورية لتحديد القيم، كالمنطق، والأخلاق، وعلم الجمال، وهي مقابلة للعلوم المسماة بالعلوم التفسيرية أو التقريرية (sciences explicative)، التي تقوم على ملاحظة الأشياء، وتفسيرها كما هي عليه في الطبيعة.

يقتصر على دراسة ما هو كائن أو الأوضاع الراهنة، ولكن بما ينبغي أن تكون عليه"[٤٨]، و"يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني بما هو كذلك، أي يضع قوانين الأفعال الإنسانية ومثلها العليا".[٤٩]

هذا المفهوم ذهب إليه الفلاسفة التقليديون، أو أصحاب الاتجاه التقليدي في الأخلاق، على عكس الاتجاه الوضعي[٥٠]، الذي يرى أن الأخلاق علم وضعي يدرس الأخلاق دراسة وصفية داخل مجتمع معين.

وعليه فعلم الأخلاق لا يبحث في الأعمال الإنسانية، من حيث القوانين والنواميس التي تجري على سنتها، وإنَّما يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني.

باستقراء هذه التعريفات يمكن أن نقسمها إلى معسكرين اثنين:

- أحدهما جعل من علم الأخلاق علمًا وضعيًّا، يدرس الأخلاق كما هي داخل مجتمع معين، فتكون الأخلاق بذلك: "كل ما تواطأ عليه الناس في بيئة معينة، وإن كانت

(ينظر: موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات – بيروت، الطبعة الثانية (٢٠٠١م)، ج(٣)، ص(٨٨١–٨٨٢)، والمعجم الفلسفي، جمال صليبا، دار الكتاب اللبناني (١٩٨٢م)، (بدون طبعة)، ج(٢)، ص(٤٠٠)).

(٤٨) الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، مصطفى حلمي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م)، ص(١٥).

(٤٩) المجمل في تاريخ علم الأخلاق، هـ سدجويك، ترجمة: توفيق الطويل وعبد الحميد حمدي، الطبعة السادسة (١٩٣١م)، ج(١)، ص(١٠).

(٥٠) ذهب أصحاب هذا الاتجاه (الفلاسفة الوضعيون) إلى اعتبار الأخلاق علمًا وضعيًّا positive يعرض لدراسة العادات والتقاليد والشرائع ونحوها، كما تتمثل بالفعل عند جماعة بشرية تعيش في زمان معين ومكان محدد، وتقوم هذه الدراسة على منهج تجريبي استقرائي، ويمثل هذا الاتجاه كل من: أوجست كونت، ودوركايم، وليفي بريل. (ينظر: المجمل في تاريخ علم الأخلاق، ص(١١)).

هذه الأخلاق غير مقبولة إذا تمَّ وضعها في بيئة أخرى"، ويمثل هذا الاتجاه الفلاسفة الوضعيون؛ أمثال: "ليفي بريل"، و"إيمل دوركايم"، اللذيَن أطلقا على علم الأخلاق اسم (علم العادات).

• والثاني جعل من علم الأخلاق علمًا معياريًّا، يدرس الأخلاق كما ينبغي لها أن تكون، دون أن يعير الاهتمام لما عليه أخلاق الناس، واضعًا بذلك القانون الذي يجب أن تسير عليه الإنسانية، بحيث لا تحيد عنها، ويمثل هذا الاتجاه الفلاسفة التقليديون؛ أمثال: "أفلاطون"، و"أرسطو".

وخلاصة القول –من خلال ما تقدم بيانه– أنَّ علم الأخلاق علم يوضح معنى الخير والشر، ويبحث في السلوكيات العامة للفرد والمجتمع، من أجل وضع أخلاق مُثلى تسير عليها الإنسانية؛ فعلم الأخلاق لا يدرس سلوك مجتمع معين من أجل الدراسة والوصف فقط –كما ذهب إلى ذلك بعض علماء الاجتماع– وإنما يبحث فيما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الناس والمجتمع.

المبحث الثاني
موضوع علم الأخلاق وغايته

تبيَّن لنا أنَّ علم الأخلاق علمٌ يهتم بدراسة ما يجب أن يكون عليه السلوك الإنساني أو الأفعال الإنسانية، وهذا التعريف يجعلنا نتساءل عن موضوع علم الأخلاق، وما هي الأفعال الإنسانية التي تخضع له؟ وهل كل الأفعال هي من مباحث علم الأخلاق؟ وماهي غاية هذا العلم؟

المطلب الأول: موضوع علم الأخلاق

موضوع كل علم: "ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية؛ كبدن الإنسان لعلم الطب، فإنه يبحث فيه عن أحواله، من حيث الصحة والمرض، والكلمات لعلم النحو؛ فإنه يبحث فيه عن أحوالها، من حيث الإعراب والبناء، وكالمعلوم لعلم الكلام؛ من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقًا قريبًا أو بعيدًا".[٥١]

أمَّا علم الأخلاق فموضوعه: "خُلُق الإنسان، وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني، ففلسفة الأخلاق محلها الإنسان ذاته، وليس ما يملكه أو يحوز من عروض وأموال".[٥٢]

فعلم الأخلاق إذن له علاقة بأفعال الإنسان، ومن هنا نتساءل: ما الأعمال التي تصدر من الإنسان وتخضع لعلم الأخلاق؟

---

(٥١) تأملات في فلسفة الأخلاق، منصور علي رجب. مطبعة مخيمر، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى (١٩٥٣م)، ص(١٨).

(٥٢) الأخلاق في الإسلام ومقارنتها بالأخلاق الوضعية، ص(٤٦).

تنقسم أعمال الإنسان إلى ثلاثة أقسام:

١) **أعمال إرادية:** "تصدر من الإنسان بعد التفكير في نتائجها وإرادة عملها؛ كمن يرى أن بناء مستشفى في بلده ينفع قومه، ويحقق مطالبهم، فيتبرع بالمال لبنائه وإدارته، وكمن يقدم على قتل عدوه فيفكر في وسائل ذلك ثم ينفذ ما عزم عليه، فهذه الأعمال تُسمَّى (أعمالًا إرادية)، وهي موضوع علم الأخلاق، فيُحكَم عليها بأنها خير أو شر، وفاعلها بأنه خيّر أو شرير".[٥٣]

٢) **أعمال لاإرادية:** "كحركات القلب والرئتين والأوعية الدموية وأجهزة الإفراز؛ فهذه أعمال آلية لا دخل لإرادتك ولا لتفكيرك فيها، فلست عنها مسئولًا".[٥٤]

فهذه الأعمال إذن ليست من موضوع علم الأخلاق، "فلا نحكم عليها بخير ولا بشر"، ولا يقال: "إن الإنسان خيِّر؛ لأن قلبه ينبض نبضًا حسنًا، أو معدته تهضم هضمًا جيدًا؛ لأنه لا دخل لإرادة الإنسان في ذلك، وكل إنسان يريد أن ينبض قلبه وتهضم معدته على أحسن وجه، ولكن إرادته لا أثر لها في ذلك".[٥٥]

٣) **الأعمال المنعكسة:** "وهي تلك الأعمال الصادرة عن قوة تُحوِّل الآثار الواردة إلى آثارٍ صادرة من غير أن يكون للمخ دخل في شيء منها، وهي كثيرة؛ منها: رمش العين حين تأثرها فجأة بضوء شديد، ومنها فزع الإنسان وجفوله عند سماعه صوتًا فجائيًّا، ومنها سرعة انقباض الأيدي عند ملامستها جسمًا ساخنًا،

---

(٥٣) كتاب الأخلاق، أحمد أمين. ص(٣).

(٥٤) تأملات في فلسفة الأخلاق، منصور علي رجب، ص(٢٢).

(٥٥) كتاب الأخلاق، أحمد أمين، ص(٣).

إلى ما هنالك من هذه الأعمال؛ فالإنسان هنا ليس مسئولًا عن الأعمال المنعكسة كما لا تسأل عن جمالك أو بشاعتك، ولا عن ذكائك أو غبائك، ولا عن مولد ليس لك فيه اختيار".[٥٦]

وهناك نوعٌ آخر من الأعمال بين العملين الاثنين، أي بين الأعمال الإرادية والأعمال غير الإرادية، فهل هي موضوع علم الأخلاق؟

كما في الأمثلة التالية:

- "من الناس من يأتي أعمالًا وهو نائم، فلو أن أحدهم أشعل نارًا بمنزله وهو في هذه الحالة، أو أطفأ نارًا كادت تحرق منزله، فهل هذا العمل إرادي يُحْكَم عليه بأنَّه شر في الحالة الأولى، وخير في الحالة الثانية؟

- قد يصاب إنسان بداء النسيان، فيترك عملًا كان يجب عليه عمله فيوقته، أو يخلف موعدًا وعده".[٥٧]

بالتأمل في هذه الأعمال نرى أنَّها أعمال غير إرادية؛ "فليس النائم في المثال الأول قد تعمد إحراق المنزل وقدَّر نتائجه؛ لذلك لا يُحكَم على عمله هذا بأنه خير أو شر؛ لأنه لا إرادة له، ولا يُسأل فيه إنَّما يُسأل عنه ويحاسب عليه إذا كان يعلم أنه مثاب بهذا المرض، وأنه يأتي أعمالًا خطرة وهو نائم، ثم لم يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه، بأن يحول بين نفسه والنار وأدواتها، فهو مسئول خلقيًّا في عدم الاحتياط وقت الانتباه؛ لأنه شيء إرادي، كان في مُكنته أن يحتاط له

(٥٦) تأملات في فلسفة الأخلاق، منور علي رجب، ص(٢٢).

(٥٧) كتاب الأخلاق، أحمد أمين، ص(٥).

ثم لم يفعل، وكذلك الأمر في المثال الآخر".[٥٨]

وخلاصة القول في موضوع علم الأخلاق، أنه خاصٌ، كما قال "أحمد أمين": "بالأعمال التي صدرت من العامل عن عمد واختيار، بعلم صاحبها وقت عملها، وكذلك الأعمال التي صدرت لا عن إرادة، ولكن كان يمكن تجنب وقوعها عندما كان مريدًا مختارًا، فهذان النوعان يحكم عليهما بالخير أو الشر، وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور، ولا يمكن تجنبه في حالة الاختيار، فليس من موضوع الأخلاق".[٥٩] وعليه، فإن موضوع الأخلاق هي أعمال الإنسان الاختيارية التي صدرت عن الفاعل باختيار وعمد، فهذه الأفعال هي التي يحكم بأنها خير أو شر، وبأن صاحبها خيِّر أو شرير.

المطلب الثاني: غاية علم الأخلاق

مرَّ بنا أن علم الأخلاق علم يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني لا فيما هو كائن، وأن الدراسة الأخلاقية تتعلق بأفعال الإنسان الإرادية، وعلم الأخلاق كأي علم إن لم يقترن بالعمل ولم يُوصِّل إلى أهداف وثمار، سيكون في دراسته مضيعة للوقت واستنزاف للجهود، وعلى هذا الأساس قد يتساءل الدارس عن الفائدة من هذه الدراسة، والغاية من هذا العلم، وهل من شأنه أن يغير سلوك الأفراد للأحسن؟

هذه التساؤلات في موضعها تمامًا، "فلا يكفي في الدراسة الأخلاقية البحث العلمي في الحياة الخُلُقية وقوانينها، ولكن يجب أن نهدف إلى الإقناع بأنه في إمكاننا –بواسطة الجهد الدائب– أن نرتفع بأخلاقنا إلى المستويات الحسنة، ونتخلص من

---

(٥٨) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(٥٩) المرجع السابق، ص(٦).

الأخلاق السيئة". [٦٠]

لكن الفلاسفة قد اختلفوا في الجواب على هذه الإشكالات أيَّما اختلاف، "بينما نرى "سقراط" (٤٧٠ق.م – ٣٩٩ق.م) يقول: إن الفضيلة هي المعرفة، أي إن معرفة الفضيلة سبب لاكتساب الفضيلة، والجهل بها يحرم الإنسان منها، نرى كثيرًا من الفلاسفة غيره يؤكدون أنَّ العلم لا شأن له بالعمل، وبالتالي لا أثر له في إصلاح النفوس". [٦١]

نعم قد تكون معرفة الأخلاق والعلم بها غير ضمان للامتثال للقيم الفضيلة، "كما أنَّ عدم معرفته كذلك لا تمنع من أن يكون الإنسان مثالًا للأخلاق الكريمة، وكل ما هنالك أن دراسة الأخلاق تُكسب صاحبها الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية، ونقدها والحكم عليها حكمًا صائبًا، ففرْق كبير بين حكم يعتمد على البحث والدراسة، وحكم آخر يستند على مجرد العُرف والتقاليد". [٦٢]

فعلم الأخلاق لن يجعل من الإنسان صالحًا بالضرورة، لكنه "سيفتح عينيه ليريه الخير والشر وآثارهما، وهنا تتوقف مهمة علم الأخلاق، وتبدأ مهمة الشخص المراد صلاحه؛ فعلم الأخلاق لا يفيدنا ما لم تكن لنا إرادة تتولى الباقي، فتطيع أوامره أو ترفضها، فإنما الأمر إليها وحدها". [٦٣]

فعلم الأخلاق على هذا الأساس هو المصباح الذي ينير طريق الفرد في التعرف

---

(٦٠) الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، مصطفى حلمي، ص(٢٣).

(٦١) المباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، ص(١٣).

(٦٢) تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، محمد مهران رشوان، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة – مصر، طبعة (١٩٩٨م)، ص(٣٢–٣٣).

(٦٣) المرجع في تاريخ الأخلاق، محمد عبد الرحمن مرحبا، ص(٣٧).

على الخير والشر، والذي من شأنه أن يُغيّر في نفسه ويوجهها إلى السلوك الإنساني، وذلك إذا كان الفرد قابلًا للتغير؛ لأن علم الأخلاق يبقى دراسة نظرية تهتم –كما ذكرنا في غير موضع– بدراسة ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني.

ومن هنا نجد أن "النقطة الأساسية في الأخلاق هي أنها تبين للإنسان أن قانونه وغايته هو فعل الخير دائمًا، مهما وقفتْ في طريقه العقبات التي يسببها تَعَقُّد الحياة الاجتماعية، وتناقُض المصالح والقيم والأهداف فيها، وأن عمل الخير بباعث خلقي، إنما هو طاعة غير محدودة، ولا تقترن بالتذمر والضجر، وإنما تقترن بالاستسلام لله –تعالى– والثبات والبسالة إذا اقتضى الحال".[٦٤]

هكذا يكون موضوع علم الأخلاق هو الأفعال التي تصدر عن إرادة الإنسان واختياره، بحيث تكون هذه الأفعال محل دراسة عالم الأخلاق، فيحكم على صاحبها بأنه خيّر أو شرير، وبأن الفعل الأخلاقي الذي صدره عنه خير أو شر. فتكون بذلك الغاية من علم الأخلاق وضع حلول نظرية للمشكلات الأخلاقية، ومحاولة بعثها في النفوس البشرية؛ من أجل الارتقاء بأخلاق الفرد والمجتمع، وهذا ما حاول الفلاسفة الأخلاقيون معالجته في نظرياتهم الأخلاقية.

---

(٦٤) الأخلاق في الإسلام مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية، يعقوب المليجي. مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية – مصر، طبعة (١٤٠٥هـ–١٩٨٥م)، ص(٢٢–٢٣).

المبحث الثالث

الأخلاق بين النظر والعمل

اختلف الفلاسفة في تقسيم علم الأخلاق؛ فذهب البعض إلى اعتباره علمًا نظريًّا بحتًا همه المعرفة والنظر، في حين نجد أنَّ البعض قد قسم علم الأخلاق قسمين اثنين؛ فهو من ناحية علم نظري يبحث في الأخلاق، ومن ناحية أخرى علم عملي هدفه العمل والتطبيق، وفي الورقات التالية سنعرض لتلك الآراء، مبينين أقسام علم الأخلاق، والعلاقة بين الجانبين النظري والعملي فيه.

المطلب الأول: الأخلاق النظرية

حينما يتحدث الفلاسفة عن علم الأخلاق "فإنهم يعنون به تلك الدراسة النظرية التي تمثل صورة البحث عن (الحقيقة)، وتصدر من باعث عقلي هو الرغبة في (المعرفة)، مادام كل ما يهدف إليه علم الأخلاق هو التعرف على الصواب والخطأ في مضمار السلوك البشري".[٦٥]

فعلم الأخلاق بناءً على هذا الاعتبار علم نظري بحت لا مجال فيه للعمل والتطبيق؛ "فهو حين يبحث ما يبحثه فإنه لا يكون بصدد تطبيق أو عمل، بل بصدد بحث ونظر، فلا شأن للأخلاق بالسلوك الذي يقوم به الشخص، ولا مجال للحديث عن أثر ما تقوله الأخلاق في مثل هذا السلوك، فالسلوك شيء وعلم الأخلاق شيء آخر، فكذلك فإن المرء يمكنه أن يحيا حياةً خيِّرة دون أن يدرس علم الأخلاق".[٦٦]

---

(٦٥) مشكلات فلسفية (المشكلة الخلقية)، زكريا إبراهيم. دار مصر للطباعة، مصر، بدون طبعة، ص(٤٢).

(٦٦) تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، محمد مهران رشوان. ص(٢٤).

ومن بين أهم الفلاسفة الذين رأوا في علم الأخلاق علمًا نظريًّا بحتًا فيلسوف التشاؤم "شوبنهاور"[٦٧]؛ فهو من أشدِّ الفلاسفة تمسُّكًا بكون الأخلاق نظرية، ولا يمكنها أن تكون عملية.

فحياة الإنسان –حسب "شوبنهاور"– تمضي في سبيلها دون أن تعير الأخلاق كبير اهتمام، فليس في وسع الأخلاق أن تبتكر لنا ما ينبغي أن يكون، بل ليس في وسعها حتى أن تكشفه، وتعلمنا إياه.[٦٨]

وبإمعان النظر في الرأي الذي ذهب إليه، سنجد أنه نفى عن الأخلاق كل طابع معياري، جاعلا منها دراسة نظرية أو تأملية بحتة، وحجة "شوبنهاور" في ذلك أنه ليس من شأن الأخلاق، أن تحدد سلوكنا العملي، أو أن تُلقي الضوء على الطريقة التي لابد لنا من اتخاذها في تحديد هذا السلوك.[٦٩]

نعم علم الأخلاق علم نظري، لكن ليس كما ادَّعى "شوبنهاور"، "فهو نظري حين يحدثك مثلًا عن الضمير فيقول لك: إنك تحمل في نفسك قانونًا ومحكمة بوجه ما تحكم ببراءتك، أو ما بإرادتك بحسب الأحوال، ولها من القوة التنفيذية إمَّا الرضا الجميل بأنك عملت خيرًا، وإما الندم ووخز الضمير على كونك عملت شرًّا، فهو علم نظري حين يحدثك عن هذه القوة، وعن أنها ليست من وضعك أيها الإنسان

---

(٦٧) شوبنهاور (١٧٨٨م – ١٨٦٠م): فيلسوف ألماني، مؤسس فلسفة التشاؤم، كان يرى أن هذا العالم شر عالم يمكن أن يكون؛ وأن ما فيه من الآلام تفوق ما فيه من اللذائذ، وأن السعادة إنما تكون بالزهد، وقمع الشهوات وبالحياة الفكرية، وأنَّ الشيء الأساسي فينا هو الإرادة. (مبادئ الفلسفة، أ.س رابوبرت، ترجمة: أحمد أمين، مؤسسة هنداوي، القاهرة – مصر، (بدون طبعة بدون تاريخ)، ص(١٣٤)).

(٦٨) مشكلات فلسفية (المشكلة الأخلاقية)، زكريا إبراهيم. ص(٤٥).

(٦٩) نفس المرجع، نفس الصفحة.

ما دُمت قادرًا على تغييرها، على رغم وحي المنافع وعميات الشهوات".[٧٠]

فالجانب النظري في الأخلاق يختصُّ في: الخير والشر، ووضع قواعد السلوك ومقاييس الأعمال، والبحث في الضمير الإنساني حقيقته ومظاهره، كما أنه يُعنى بتحديد غاية الإنسان من هذه الحياة، وكماله الذي ينشده، والذي تتحقق به سعادته وما يتعلق بها من أبحاث.[٧١]

بعدما تبين لنا أنَّ الجزء النظري من علم الأخلاق، إنما يبحث في السلوك الإنساني، ويضع القواعد الأخلاقية المُثلى، ويعرف هذه الأخلاق سواء المحمود منها أو المذموم، ننتقل إلى الجزء التطبيقي أو العملي من علم الأخلاق.

المطلب الثاني: الأخلاق العملية

مرَّ بنا أن العلم بدون عمل لا يُجدي نفعًا، فإذا كان علم الأخلاق علمًا نظريًّا بحتًا –كما ذهب إلى ذلك "شوبنهاور"– فما الفائدة منه إذن؟ وما الثمار التي يمكن أن نجنيها من هذا العلم؟

لكن الواقع غير الذي ذهب إليه "شوبنهاور"؛ "فالفلسفة الخُلُقية هي منذ البداية فلسفة عَمَليَّة، تهدف إلى الإجابة عن السؤال: ما الذي ينبغي أن أقوم به في الواقع العملي؟ وليس ما الذي يمكنني أن أعرف؟ لأن هذا السؤال يقتضي أن يكون موضوع المعرفة مستقلًا عما تتوجه إليه في عالم التجربة، لكي تدركه، أمَّا السؤال الأول فإننا نكون بإزاء شيء غير متحقق في التجربة والواقع وليس له وجود سابق، بل يكتسب

(٧٠) تأملات في فلسفة الأخلاق، منصور علي رجب، ص(٢٨).

(٧١) الأخلاق في الإسلام (النظرية والتطبيق)، إيمان عبد المومن سعد الدين. مكتبة الرشد، الرياض السعودية، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ–٢٠٠٢م)، ص(٣٨).

وجوده من خلال عملنا الذي نقوم به، وبذلك يتحقق هذا الطابع العملي من خلال توجيه نشاطنا العملي نحوه، ولهذا تكتسب الأخلاق هذا الطابع العملي الواضح".[٧٢]

بل إن من الفلاسفة المعاصرين "أمثال "إدوارد مور" مثلًا من اعترف بهذا الطابع العملي للأخلاق؛ حيث ذهب إلى أن الغرض الأساسي للأخلاق هو التأثير على سلوكنا الفعلي".[٧٣]

من هنا كان الجانب العملي لعلم الأخلاق هو المعيار الذي يُعرف به أثر الأخلاق النظرية في الحياة الواقعية للفرد والجماعة، سواء كان ذلك بمطابقة الفعل لمعاني الخير والحق والواجب أو مخالفته لها.

وقد تنبه أرسطو لأهمية انتقال الأخلاق النظرية من مجرد النظر والمعرفة إلى التطبيق؛ حيث قال: "في الشئون العملية ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظريًّا بالقواعد، بل هو تطبيقها؛ ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفي أن يعلم ما هي، بل يلزم – زيادةً على ذلك– رياضة النفس على حيازتها واستعمالها ".[٧٤]

فليست العلاقة بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية "علاقة تنافي وتعارُض بل هي علاقة تداخل وتفاعُل وإخصاب، وإلا لكان فيلسوف الأخلاق شريرًا بالضرورة، ولكان كل إنسان فاضل دمث الأخلاق، غبيًّا، أو على الأقل عديم التأمل والتبصر والنظر، وإنَّما هي تقسيمات أكاديمية يُراد بها التحليل والتبسيط، تجنبًا للتعقيد الذي

---

(٧٢) تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، محمد مهران رشوان، ص(٢٥–٢٦).

(٧٣) مشكلات فلسفية (المشكلة الخلقية)، زكريا إبراهيم. ص(٤٦).

(٧٤) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطو طاليس، ترجمة: أحمد لطفي السيد، مطبعة الكتب المصرية، القاهرة – مصر، الطبعة (١٣٤٣هـ–١٩٦٤م)، ج(١)، ص(١).

تتصف به النظرية الأخلاقية وتسهيلًا للبحث والدراسة".[٧٥]

فالأخلاق إذن ليست علمًا نظريًّا بحتًا هدفه المعرفة العقلية فقط، وإنما هي علم عملي هدفه العمل والتطبيق، فالأخلاق تضمُّ جانبين اثنين لا يمكن الفصل بينهما؛ وهما الجانب النظري من حيث البحث والمعرفة، والجانب العملي من حيث حمل الناس على فعل الخير استنادًا إلى القواعد النظرية.

فكلاهما يشكلان لُحمة واحدة؛ لتكون العلاقة بين الجانبين علاقة تداخل وتكامل بدلًا من التعارض والتنافي.

(٧٥) المرجع في تاريخ الأخلاق، محمد عبد الرحمن مرحبا، ص(٣٦).

المبحث الرابع
الأخلاق بين الدين والفلسفة

تشكل صلة الأخلاق بالدين نقطة الخلاف بين من يرى في الأخلاق منظومةً قائمةً بذاتها، وبين من يرى تبعيتها للدين، وفي هذا المبحث، سنحاول عرض تلك الآراء مع بيان أصل الصلة بينهما، أمَّا عن الفلسفة فقد ارتبطت منذ بدايتها بالبحث في الأخلاق؛ ولذلك سيكون حديثنا في العلاقة بينهما مبنيًّا على مكانة الأخلاق من الفلسفة.

المطلب الأول: الأخلاق والدين

تضاربت الآراء واختلفت الاتجاهات في تحديد العلاقة بين الدين والأخلاق، فذهب البعض إلى القول بضرورة الفصل بينهما، وذهب البعض الآخر إلى القول بعدم إمكانية الفصل بينهما، لكونهما يكونان ثنائية متكاملة ومتجانسة.

فذهب علماء التنوير في القرن الـ ١٨م، إلى القول بضرورة فصل الأخلاق عن الدين، وقد كان لنظرتهم هذه أسبابها التاريخية والموضوعية المرتبطة بالفترة العصيبة التي عرفها التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى، وليست حتمية تاريخية تجري على كل العصور وفي كل الديانات.

فقد لاحظ التنويريون أمثال: "فولتير [٧٦] وديدرو[٧٧] وبارون هولباخ[٧٨]، أنَّ المسيحية قد تعرضت لآفتين اثنتين أدَّت إلى تأسيس أخلاقي مستقل عن الدين"[٧٩]، وتتمثل هاتان الآفتان في:

١) **الخرافة واللاعقلانية:** حيث "طغت –بحسبهم– الصفة الخرافية على المعتقدات المسيحية، فكادت أن تعيد الوثنية إلى الكنيسة، بل عدها أحدهم –وهو

---

(٧٦) فولتير: (١٦٩٤م – ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسي، احتلت حربه على الأباطيل والخرفات والأحكام المسبقة المرتبطة بالدين –والتي كانت موضع رعاية واعتناء فائقين من قبل الكنيسة– مكان الصدارة في نشاطه الفكري والتثقيفي، فكان يحلل المصادر التاريخية للمذهب المسيحي؛ ليقيم مقارنات فيما بينها، ويكشف عن التناقضات الملازمة لهذا المذهب، وكان انتقاده هذا سببًا في تأسيسه لفلسفة تنفي الأصل الإلهي للأخلاق، وتكمن إحدى السمات المميزة للأخلاق عند فولتير في رد الاعتبار إلى الإنسان الحسي الشهواني، وإلى حاجاته وملذاته.(فلسفة الأنوار، ف.فولغين. ترجمة: هنرييت عبودي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط١: (٢٠٠٦م)، ص(٢٦–٢٨)).

(٧٧) دنيس ديدرو: (١٧١٣م – ١٧٨٤م)، فيلسوف ومفكر مادي فرنسي، يعزو إلى الدين وإلى المعتقدات الباطلة، وإلى الأخلاق المشتقة منها دورًا خاصًّا في تكوين الرأي العام المعاكس لحقوق الإنسان الطبيعية والمناهض لها، فالتحالف مع الدين يعود بالفائدة على الطغاة، فلهؤلاء المصلحة في تسميم عقول الناس بأخلاق مناهضة للطبيعة. (ينظر: فلسفة الأنوار، ف.فولغين. ترجمة: هنرييت عبودي، ص(١٢١)).

(٧٨) بول هنري هولباخ: (١٧٢٣م – ١٧٨٩م) فيلسوف فرنسي من أصل ألماني، تميزت كتاباته بالنزعة الإلحادية المادية، من أهم مؤلفاته (نظام الطبيعة، السياسة الطبيعية، النظام الاجتماعي، حكم الأخلاق)، قدَّم في هذه المؤلفات عرضًا منهجيًا فذًّا للتصورات الاجتماعية لفلاسفة الأنوار في فرنسا في القرن الثامن عشر ميلادي، اعتبر القوانين الطبيعية معايير للحياة الاجتماعية؛ لكونها تتفق من حيث الجوهر مع معايير الأخلاق، فالقانون الطبيعي –حسب هولباخ– فوق جميع القوانين التي يسنها البشر، والطبيعة والحاجات ترشد البشر وتسدد خطاهم على نحو أفضل مما تفعله القوانين والعادات والمؤسسات، ومن ثم فإن بعض أفعال الناس، قد تكون عادلة وإن حظرتها القوانين المدنية، وقد تكون على العكس مُجحِفة وغير عادلة وإن أقرتها القوانين. (فلسفة الأنوار، ف.فولغين. ترجمة: هنرييت عبودي، ص(١٣٨)).

(٧٩) بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمن، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى (٢٠١٤م)، ص(٣٣).

(ديدرو)– أكثر إهانةً للألوهية من الإلحاد نفسه، وأحصوا من هذه المعتقدات؛ (الخطيئة الأصلية)[٨٠] و(التثليث)[٨١] و(التجسيد)[٨٢] و(ألوهية المسيح)[٨٣] و (خلاص البشر)[٨٤] و(التوجه إلى الأيقونات) و(المعجزات والأسرار)".[٨٥]

إنَّ هذه المعتقدات جعلت "فولتير" يقول: "فهل من حماقة أكبر ومن شناعة أفظع أن نقول للبشر: أيها الأصدقاء لا يكفي أن تكونوا رعايا أوفياء، وأبناء مطيعين وآباء عطوفين، وجيرانًا منصفين، ولا يكفي أن تمارسوا الفضائل كافة، فتراعوا الصداقة وتنبذوا الإجحاف، وتعبدوا يسوع المسيح بأمان وسلام، بل يتعين عليكم أيضًا أن تعرفوا كيف أُوجدنا من أبد الآبدين، وإن عجزتم عن تمييز الأقنوم من المشارك في

(٨٠) تعلن المسيحية أنه بسبب معصية آدم بعدم طاعته لوصية الله بأن لا يأكل من شجرة المعرفة، قد أخطأ، وتوارث خطيئته جميع ذريته، فجميع الجنس البشري مولدون خطاه. (ينظر: الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار القاهرة – مصر، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ–١٩٨٩م)، ص(٩٣–٩٤)).

(٨١) مراد النصارى بالتثليث: لأن طبيعة الله عبارة عن ثلاث أقانيم متساوية؛ الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، والأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق. (ينظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر – القاهرة، الطبعة الثالثة (١٣٨١هـ–١٩٦١م)، ص(٩٣–٩٤)).

(٨٢) المراد بالتجسد: أن الله –تبارك وتعالى– اتخذ من جسد المسيح له صورة، وحلَّ بين الناس بصورة إنسان هو المسيح. (ينظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ–١٩٩٧م).

(٨٣) كان رجل في مصر يُدعى أريوس ينفي عن المسيح الألوهية؛ حيث أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما بثته بين المسيحيين من ألوهية المسيح وتدعوا إليه؛ فقام هو محاربًا ذلك، ومُقرًّا بوحدانية المعبود، مُنكِرًا ما جاء في الإنجيل مما يوهم تلك الألوهية، وقد كان هذا الخلاف سببًا خاصًّا في انعقاد "مجمع نيقية" سنة (٣٢٥م)، (محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص(١١٤)).

(٨٤) الخلاص: المقصود به الخلاص من خطيئة آدم التي ورَّثها لأبنائه وذريته والجنس البشري بعده، والمسيح هو المخلص، فقد دفع القصاص عن الخطيئة الأصلية، وخطايا الناس بموته على الصليب، حسب اعتقاد النصارى. (الغفران بين المسيحية والإسلام، ص(١١٣)).

(٨٥) بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمن، ص(٣٤).

الجوهر، فإننا سوف نشي بكم؛ لتُحرَقوا في نار الجحيم إلى أبد الآبدين، وبانتظار ذلك سنبدأ بذبحكم ذبحًا".[٨٦]

فقول "فولتير" يُحاكي واقع الصراع الذي أغرق أوروبا في بحور الدماء سنوات مديدة؛ حيث كان كل من خالف ما قررته المجامع[٨٧] المسيحية التي عقدت في القرن الرابع والخامس، يعتبر مبتدعًا وجب لعنه وقتله.

بالإضافة إلى الخرافة التي حظي بها جزء كبير من العقائد المسيحية –حسب التنويرين– كان لآفة أخرى التأثير البالغ على نظريتهم في العلاقة بين الدين والأخلاق وهي:

٢) **الصراعات الدينية:** كان لاختلاف المسيحيين حول جملة من المعتقدات الأثر الواضح في نشوب الحرب بين الفرق المختلفة؛ حيث "استولت على النفوس ألوان من التعصب لهذه المعتقدات، توهُّمًا لأفضليتها على غيرها، وأذكت بين الطوائف المسيحية فتنةً عقديةً كبرى، أدخلتها في حروب طاحنة دامت سنين طويلة على فترات مختلفة، وقد دعا هذا التعصب (الأنوريين) إلى ممارسة شديد نقدهم لهذه المعتقدات التاريخية، بل صريح قدحهم في معتنقيها، حتى اشتهر عن "فولتير" قوله: "اسحقوا الخسيس"، قاصدًا بذلك التشنيع بالمسيحية التاريخية، أو بالأخص الكاثوليكية، وقد ضمَّنوا هذا النقد والقدح مصنفات مستقلة نُشِر بعضها بأسماء

---

(٨٦) رسالة في التسامح، فولير. ترجمة: هنرييت عبودي، دار بيترا للنشر والتوزيع، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى (٢٠٠٩م)، ص(١٥٩–١٦٠).

(٨٧) من بين أهم المجامع التي قررت ألوهية المسيح: مجمع نيقية؛ الذي عقد بروما سنة (٣٢٥م)، وقد قرَّر المجمع ألوهية المسيح، وأنه من جوهر الله، وأنه قديم بقدمه، وأنه لا يعتريه تغير ولا تحول، وفرضت تلك العقيدة على المسيحية قاطبةً، مؤيدة سلطان قسطنطين، لاعنةً كل من يقول غير ذلك، والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ أسقفًا، ويخالفهم في ذلك سبعمائة ألف أسقف. (محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص(١١٧)).

مستعارة أو مجهولة، وأثار بعضها سخط الكنيسة وإدانتها".[٨٨]

فهذه المعتقدات الخرافية –حسب التنويريين– والتي أدخلت أوروبا في سنوات مديدة من الحروب والاقتتال، جعلت من فصل الأخلاق عن الدين ضرورة ملحة، وفي هذا الصدد يقول "فرنسوا جوليان": "فلم تبقَ للأخلاق حاجة لسند الميتافيزيقا[٨٩]، وهو سند مشبوه طالما أنَّ نتائج الميتافيزيقا لم تعد مقنعة".[٩٠]

بل اتجه بعضهم للتأليف في التسامح؛ فصنفوا في ذلك مصنفاتٍ قيمة؛ منها كتاب لفولتير سماه (رسالة في التسامح)، شدد فيه على ضرورة التسامح ونبذ التعصب، وتجاوز السنوات العصيبة التي عرفتها أوروبا خلال ثلاثة قرون من تاريخها.

وبناءً على هاتين الآفتين اندفع الدهرانيون[٩١] إلى وضع صيغ متعددة للفصل

---

(٨٨) بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمن، ص(٣٤).

(٨٩) الميتافيزيقا La métaphysique: أو علم ما وراء الطبيعة؛ هو العلم الذي يتأمل الموجودات اللامحسوسة والماورائية، وهو أيضًا معرفة الأشياء في ذاتها، لا معرفة الظواهر التي تتجلى من خلالها هذه الأشياء، وهي دراسة الأشياء من منظور الأزل؛ أي من حيث جواهر وماهيات ثابتة أو أزلية، لا من منظور تاريخي وزماني، أي من حيث هي متغيرة وزائلة، وتجدر الإشارة إلى أنه قد ظهرت منذ القرن السابع عشر مواقف نقدية من الميتافيزيقا تحقرها، وتطورت هذه المواقف وانتشرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وخاصةً في القرن العشرين، مع ظهور النزعة الوضعية التي تُقصي من المباحث الفلسفية جميع المباحث الميتافيزيقية، ولا ترى فيها غير هراء لا طائل من ورائه. (ينظر: معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعد، دار الجنوب، تونس، (بدون طبعة، بدون تاريخ)، ص(٤٨٠)).

(٩٠) جدل في الأخلاق، فرانسوا جوليان. ترجمة: خديجة الكسوري بن حسين وآخران، دار الجنوب للنشر، تونس، ط:(٢٠٠٤م)، ص(٢١).

(٩١) الدهرانيون –حسب تعبير طه عبد الرحمن في كتابه "بؤس الدهرانية"– هم أولئك الذين يفصلون الدين عن الأخلاق، وقد وضع طه عبد الرحمن هذا المصطلح مقابل العِلمانيين الذين يفصلون الدين عن العلم، والعَلمانيين الذين يفصلون الدين عن السياسة، وجعل هذه المصطلحات صورةً من صور الدنيانية التي تعمل على انتزاع قطاعات الحياة من الدين؛ ففي استعمال الدهرانية إشعار بأن فصل الأخلاق عن الدين ينزع عن الأخلاق لباسها

بين الدين والأخلاق[٩٢]؛ فكان انتقادهم "لتأسيس الأخلاق دينيًّا مستمد من فكرة الثواب والعقاب في الآخرة، وتحديدًا من التفسيرات الأخلاقية للدين"[٩٣]، ومن الأمثلة على ذلك أنَّ الدين حسب هذا الاتجاه يعزز الأخلاق لدى ضعاف النفوس، الذين لا يرون العمل الأخلاقي أمرًا يستحق أن يقوم به الإنسان بحد ذاته، وهذا يعني من زاوية نظرهم أن الدين بتلويحه بالثواب والعقاب، يحجب إمكانية التطور الكامل لقوى الإنسان الأخلاقية الحرة.[٩٤]

لكن هذا النقد عند التنويريين لا يلامس حقيقة الصلة بين الله والإنسان، ونستشهد هنا بما ذهب إليه "طه عبد الرحمن" في حديثه عن أصل الصلة بين الله والإنسان؛ حيث قال: "الأصل في صلة الله بالإنسان أنه خيره: إن شاء ائتمر بأمره وانتهى بنهيه، وإن شاء لم يأتمر بأمره ولم ينته بنهيه، ولم يقف تخييره له عند هذا الحد، بل إن شاء أقرَّ بوجوده وعمل بحسب إقراره، وإن شاء أنكره، وله أن يأتي تصرفاته على وفق إنكاره".[٩٥]

ومن هنا كانت حجة التنويريين بأن تأسيس الأخلاق على الدين قد يعزز الأخلاق عند ضعاف النفوس أمرًا واهيًا؛ لأن الله جعل للإنسان حرية الاختيار

الروحي، ويكسوها لباسًا زمنيًّا، ويصدق في ذلك قول الله –تعالى–: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (سورة الجاثية: الآية (٢٤)). (ينظر: بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمن، ص(١١)).

(٩٢) ينظر: بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمن، ص(١٢).

(٩٣) الدين والعلمانية في سياقهما التاريخي، عزمي بشارة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة – قطر، الطبعة الأولى (٢٠١٣)، ج(١)، ص(١٢٠).

(٩٤) نفس المرجع، ص(١٢٠–١٢١).

(٩٥) بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمن، ص(٧٦).

والتصرف طبقًا لقرارة نفسه، وما استقر عليه فكره وضميره الإنساني، أضف إلى هذا أن "الأخلاق دائمًا مبدأ تقييد أو تحريم يناقض الغريزة الحيوانية في طبيعة الإنسان"[٩٦]، وبالتالي فالأخلاق تقارب الدين في هذا.

وما يمكن استنتاجه من هذا العرض السريع لنظرية فصل الدين عن الأخلاق، أنَّ قاعدتها الأساسية هي المرحلة المظلمة التي عرفتها أوروبا في ظل تغطرس الكنيسة، وما نتج عن ذلك من إراقة الدماء خلال سنوات متطاولة في الزمن، فأسست هذه الفترة لقطيعة الغربيين مع الدين الذي لم يفصل عن الأخلاق فقط، وإنما فصل عن الحياة بوجه عام ليبقى حبيس الكنائس ودور العبادة.

لكن إذا كان هذا الاتجاه يرى أن فصل الدين عن الأخلاق ضرورة "فهناك اتجاه آخر من الأخلاقيين يرى تبعية الأخلاق للدين[٩٧] وقد بنوا ذلك على أصلين اثنين؛ وهما: (الإيمان بالإله)، و(إرادة الإله)".[٩٨]

وقد ظهر هذا الاتجاه عندما ازدوجت الفلسفة الأخلاقية الموروثة عن اليونان

---

(٩٦) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (١٩٩٤م)، ص(١٩٤)).

(٩٧) يعتبر أغسطينوس (٣٥٤–٤٣٠م) من الفلاسفة المسيحيين الذين قالوا بتعبية الأخلاق للدين؛ حيث ربط المشكلة الأخلاقية بالله، فكما أن الله مصدر الحقيقة، كذلك هو مصدر الأخلاق، وعلى هذا يقول: "إن الحياة السعيدة في نعيم الله، ومن أجل الله، ولا شيء غير هذه الحياة يمكن أن يسمى سعيدًا، فالسعادة والحقيقة شيئان مترادفان"، وهكذا كانت معظم آرائه وأفكاره في السلوك الإنساني تستند على النصوص اللاهوتية، فتعتمد على الأوامر والنواهي والتقارير الدينية، مثل افعل ولا تفعل. (ينظر: فلسفة العصور الوسطى، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة، القاهرة – مصر، الطبعة الثانية (١٩٦٩)، ص(٣٣)).

(٩٨) سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية)، طه عبد الرحمن، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الرابعة (٢٠٠٩م)، ص(٣١).

في الغرب "بتعاليم الدين المسيحي؛ حيث اندرج فيها مبدأ الإيمان بالإله، وتقرر التسليم بأنه لا أخلاق بغير إيمان، علمًا بأن الإيمان هو عبارة عن التصديق اليقيني بالوجود الغيبي للإله عن طريق القلب، فمادام الغرض من الأخلاق هو رسم طريق الحياة الطيبة للإنسان، فلا شيء يبلغ مبلغ الدين في الحرص على تحقيق هذا الغرض في عاجل الإنسان وآجله معًا، وما ذلك إلا لكون الدين ينبني على الإيمان بإله قادر على كل شيء، يعين المؤمن على الوصول إلى هذه الحياة الطيبة، متفضلة عليه بوجوده وشفقته".[٩٩]

وحسب هذا التصور، فإن ما يجعل الأخلاق تابعة للدين هو شمولية هذا الأخير لكل المعاني الأخلاقية، وحرصه على تحقيق سعادة الإنسانية في الحال والمآل، فإذا كان علم الأخلاق هو تنظير لما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني، فإن الدين يعزز في نفس معتنقيه كل القيم التي من شأنها أن تصلح الناس، ليس ظاهرًا فقط بالتزام بعض القيم الأخلاقية، وإنما من الباطن تبعًا لمبدأ (الإيمان بالإله) الذي يقرُّ القلب الموقن به، فتنطلق جوارح الإنسان معلنة الانقياد للإله، الذي يعينه على سلوك طريق الخير والحياة الطيبة.

وبما أن الإيمان بالإله هو في نفس الوقت إيمان بصفاته، كانت إرادته –وهي الصفة الباعثة على الأفعال الأخلاقية، أولى هذه الصفات الإلهية، التي تجعل الإله مريدًا بإرادة كاملة، فتكون إرادته في أفعال مخلوقاته من البشر إنما هي الأمر بخيرها، فيلزمه اتباعه وكذا النهي عن شرها، فيلزمه اجتنابه.[١٠٠]

---

(٩٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(١٠٠) نفس المرجع، ص(٣٣).

بناءً على هذين الأصلين المتلازمين؛ وهما "الإيمان بالإله"، و "إرادة الإله"، كانت الأخلاق تابعة للدين، فمن آمن بالإله يجب أن يمتثل لإرادته ومشيئته التي تحقق الخير للبشرية، فلا سبيل لفصل الأخلاق عن الدين، فحسب هذا الاتجاه، الأخلاق لا يمكن أن تثمر في نفس الفرد بدون إيمان.

لكننا في علاقة الأخلاق بالدين سنسير سيرًا آخر يوضح الرؤى، ويزيل الضبابية التي ارتبطت بطبيعة تلك الصلة؛ حيث سنعالج الموضوع من زاويتين اثنتين:

١) زاوية نظرية تجريدية: ترى إمكان استقلال الدين عن الأخلاق من جهة، وترى إمكان تداخلهما وتكاملهما من ناحية أخرى.

٢) زاوية تاريخية: تكشف لنا عن حقيقة الصلة بينهما في الواقع.

فمن **الناحية التجريدية**: "إذا نظرنا إلى (الدين) من حيث هو معرفة (الحق) الأعلى وتوقيره، وإلى (الخُلق) من حيث هو قوة النزوع إلى فعل (الخير) وضبط النفس عن الهوى – كان أمامنا حقيقتان مستقلتان، يمكن تصور أحدهما دون الأخر، فتخص أولاهما بالفضيلة النظرية، والأخرى بالفضيلة العملية".[١٠١]

لكن، وبالرغم من ذلك قد تتساند الأخلاق مع الدين، "فلما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الإنسان في نفسه ومختلف علائقه مع الخلق ومع الرب، كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية، كما يرسم المعاملة الإنسانية".[١٠٢]

---

(١٠١) الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص(٩٣).

(١٠٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

فالأخلاق إذن بإمكانها أن تقف بجانب الفضيلة النظرية في رسم طريق المعاملة الإلهية، فيكون موضوعها قريبًا من موضوع الدين في تنظيم هذه العلاقة، وتعزيزها في نفس الفرد والجماعة.

وكذلك الأمر بالنسبة للفضيلة النظرية، "لما كانت الفكرة الدينية هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير الأفعال فحسب، بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه – كان القانون الديني الكامل هو الذي لا يقف عند وصف الحقائق العليا النظرية، وإغراء النفس بحبها وتقديسها، بل يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية، فيضع لها المنهاج السوي، الذي يجب أن يسير عليه الفرد والمجتمع".[١٠٣]

ومن هنا يكون الدين هو المنظم لعلاقة الفرد بربه من ناحية، والناموس الذي نستقي منه التشريعات المنظمة لعلاقة الفرد بالجماعة من ناحية أخرى، فهو يجمع بين الفضيلة النظرية من حيث معرفة الحق وتوقيره، والفضيلة العملية من حيث وضع التشريعات المنظمة للسلوك الإنساني؛ لتكون الأخلاق جزءًا من هذه المنظومة الدينية الشاملة.

والقول الجامع في هذا الجانب النظري التجريدي، أنَّ "الدين والأخلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتا النزعة والموضوع، لكنهما يلتقيان في نهايتهما، فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة، كمثل شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما، وتتعانق أغصانهما، حتى تظلل إحداهما الأخرى".[١٠٤]

---

(١٠٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(١٠٤) المرجع السابق، ص(٩٤).

أمَّا من **الناحية التاريخية**: "فإننا لا نرى الصلة بين الدين والأخلاق تبلغ دائمًا هذا الحد من التساند والتعانق، لا في مبدأ نشأتهما في نفس الفرد، ولا في دور تكونهما وتركزهما في قوانين وقواعد مقررة في المجتمع".[١٠٥]

فالحس الأخلاقي عند الطفل حتى من حيث تطور الملكات العقلية الإنسانية يتطور قبل الحس الديني، وقبل معرفة العقيدة[١٠٦]، أما في المجتمع، "فالإنسانية عرفت عبادات طغت عليها العقيدة والعبادات من دون منظومة من الوصايا الأخلاقية، كما عرف التاريخ منذ حمورابي (ت: ١٧٥٠ق.م) شرائع عبرت عن منظومات أخلاقية من دون أن تنص دينيًّا"[١٠٧]، وشهد التاريخ أيضًا على "وجود ديانات ومذاهب تجعل من المتدين ينطوي على نفسه، منفذًا مثله الأعلى في العزلة والصمت والتأملات العميقة"[١٠٨] "أكثر مما تدفعه أو تدعوه إلى فعل الخير، وهذه هي الحالات المتطرفة التي لا تمثل أغلبية الحالات ولا عاديتها".[١٠٩]

لكن رغم هذا التباين الذي قد يظهر في البداية، "يبقى الفكر الأخلاقي من أقدم الأفكار الإنسانية، ولا يسبقه سوى الفكر الديني الذي هو قديم قدم الإنسان نفسه، وقد التحم الفكران معًا خلال التاريخ؛ ففي تاريخ علم الأخلاق، لم يوجد عمليًّا مُفكِّر جاد لم يكن له موقف من الدين، إمّا عن طريق استعارة الضرورة الدينية كمبادئ للأخلاق، أو عن طريق محاولة إثبات العكس، ولذلك يمكن القول بأن تاريخ

---

(١٠٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(١٠٦) ينظر: الدين والعلمانية في سياقهما التاريخي، عزمي بشارة. ص(١٢١).

(١٠٧) نفس المرجع، ص(١١٩).

(١٠٨) الدين بحوث ممهدة في دراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز. ص(٩٤).

(١٠٩) الدين والعلمانية في سياقهما التاريخي، عزمي بشارة. ص(١٢١).

علم الأخلاق بأكمله قصة متصلة لتشابك الفكر الديني والأخلاقي".[١١٠]

ومن هنا، فالدين والأخلاق فكران عريقان في القدم، يتداخلان من حيث الموضوع فيكمل بعضهما البعض، فالدين في جانبه العملي لا يخلو من مبادئ وتشريعات ترسم طريق الصلاح للبشرية، والأخلاق كذلك لا غنى عنها في بناء العلاقة بين الإله والفرد، وتعزيز الصلة بينهما.

ولعل "علي عزت بيجوفيتش" قد أكَّد على ضرورة الجمع بين العنصرين اللذيَن ظلا في اعتقاد كثير من الناس منفصلين، وبين ذلك بمثال يجلى الضبابية عن كنه العلاقة بين الدين والأخلاق؛ استنادًا لما ورد في القرآن الكريم من آيات تدل على هذه اللُحمة بين الدين والأخلاق؛ حيث قال: "اقرأ هذه الآية (الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ)، إنها تتكرر بصيغتها أو معناها في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة، كأنما تؤكد لنا ضرورة توحيد أمرين اعتاد الناس على الفصل بينهما، إنَّ هذه الآية تعبر عن الفرق بين الدين (الإيمان) وبين الأخلاق (العمل بالصالحات)، كما تأمر في الوقت نفسه بضرورة أن يسير الاثنان معًا".[١١١]

فالأخلاق والدين يجب أن يمضيا جنبًا إلى جنب في النفس البشرية؛ لتحقيق السعادة في الدارين معًا، فالقول بضرورة الفصل بين الدين والأخلاق عند ثلة من المفكرين الغربيين، جاء –كما رأينا– نتيجة الخرافة المرتبطة بالعقائد المسيحية، التي تضاربت مع العقل والفكر الغربي، بالإضافة إلى الصراعات الدينية التي أسالت الدماء الأوروبية سنوات مديدة.

---

(١١٠) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، ص(١٩٧).
(١١١) نفس المرجع، ص(١٩٨).

وعليه، يكون الفصل بين الدين والأخلاق ليس حتمية تاريخية تجري على كل الأمم والشعوب، وإنما هو ضرورة ارتبطت بالتجربة الأوروبية مع الكنيسة، التي أدخلت الغربيين في قطيعة مع الدين.

فقد تكون بعض المجتمعات البشرية مؤسسة على الأخلاق فقط، لكن يبقى الدين في جزئه العملي مرتبطًا بالأخلاق، وتبقى الأخلاق –في رسمها لطريقة المعاملة الإلهية كما رأينا– مرتبطة بالدين، ولذلك فالإنسان –حسب تعبير باسكال[١١٢]– يبقى عاجزًا عن معرفة الخير الحقيقي والعدل بمعزل عن الإيمان.

فالدين والأخلاق إذن متداخلان في الموضوع، متكاملان في الغاية، فكل منهما يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان، سواء في علاقاته الإنسانية أو في علاقته مع الله.

المطلب الثاني: الأخلاق والفلسفة

تعتبر الأخلاق من المباحث الفلسفية الكبرى، التي اعتنى بها الفلاسفة أيَّما عناية، فخَصُّوها بمباحث وفصول تجيب عن الإشكالات التي تشغل عقل الإنسان؛ كالفرق بين الخير والشر، وما السبيل إلى تحقيق السعادة الإنسانية في العاجل والآجل؟ وغيرها من المعاني الإنسانية.

لذلك كان من الضروري في بيان علاقة الأخلاق بالفلسفة، أن نبدأ حديثنا عن ماهية الفلسفة وأقسامها، وإلى أي قسم تنتمي الأخلاق، حتى يتسنى لنا معرفة مكانة هذا العلم من الفلسفة.

---

(١١٢) ينظر: خواطر، بليز بسكال. ترجمة: إدوار البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، طبعة (١٩٧٢م)، ص(١٣٥).

معلومٌ أنَّ الفلسفة كلمة يونانية معناها الاشتقاقي هو حب الحكمة، مكونة من كلمتين يونانيتين، "فيلو" وتعني حب، و"سوفيا" وتعني حكمة، يقول "الخوارزمي" (٣٨٧هـ) –مبينًا أصل كلمة فلسفة–: "الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية، وهي فيلوسوفيا، وتفسيرها: محبة الحكمة، فلمَّا أعربت قيل: فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة منه، ومعنى الفلسفة: علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح".[١١٣]

أمَّا الجرجاني (ت:٤٧١هـ)، فقد كان تعريفه قريبًا من تعريف فلاسفة اليونان للفلسفة؛ حيث قال: "الفلسفة التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية؛ لتحصيل السعادة الأبدية، كما أمر الصادق ﷺ في قوله "تخلقوا بأخلاق الله"؛ أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات".[١١٤]

فمصطلح فيلوسوفيا مصطلح غربي، انتقل إلى الشرق فعُرِّب إلى كلمة فلسفة، يقول "الفارابي" (٣٣٠هـ): "الفلسفة اسم يوناني، وهو دخيل في العربية، (...) ومعناه (إثارة الحكمة)، والفيلسوف مشتق من الفلسفة، وهو في مذهب لسانهم (فيلوسوفوس)، (...)، ومعناه (المؤثر للحكمة)، والمؤثر للحكمة عندهم هو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة".[١١٥]

أمَّا عن أول من استعمل هذه الكلمة، "فقد زعم "هيراقليط البنطي"، وأيَّده "شيشرون" و"ذيوجانوس اللائرسي"، أن "فيثاغورس" أطلق كلمة فيلوسوفيا (محبي

---

(١١٣) مفاتيح العلوم، الخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ–١٩٨٩م)، ص(١٥٣).

(١١٤) معجم التعريفات، محمد علي الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، ص(١٥٣).

(١١٥) مقدمة مبادئ الفلسفة القديمة، أبو ناصر الفارابي. المكتبة السلفية، القاهرة – مصر، طبعة (١٣٢٨هـ–١٩١٠م).

الحكمة) على أولئك الذين اقتصروا على دراسة طبيعة الأشياء، وتركوا ما عدا ذلك من ألوان المعرفة"[١١٦]، "فقد نسب إلى "فيثاغورس" قوله: (لست حكيمًا، فإن الحكمة تضاف لغير الآلهة، وما أنا إلا فيلسوف)؛ أي محب للحكمة، وبذلك يكون فيثاغورس أول من استعمل لفظ فلسفة".[١١٧]

لكن هناك من رجَّح أن من استعمل هذه الكلمة "سقراط"؛ حيث سمَّى نفسه فيلسوفًا؛ أي محبًا للحكمة، تواضعًا وتمييزًا له عن السفسطائيين.[١١٨]

فقد وردت هذه الكلمة "مرارًا على لسان "سقراط"، في "محاورات أفلاطون"، ولكن بمعنى أخلاقي، أي محبة الحكمة الخُلُقية، ثم جاء "أفلاطون" فتوسع في معناها، وجاء تلميذه "أكسينوقراط" فقسَّم الفلسفة إلى ثلاثة أقسام: نظرية المعرفة، الفلسفة الطبيعية، الأخلاق".[١١٩]

أمَّا "أرسطو"، فقد اتسع معنى الفلسفة عنده، فأصبح يشمل كل المعارف العقلية، يذكر "الكندي" في أول كتابه في الجواهر الخمسة تعريف لأرسطو، وذلك

---

(١١٦) مدخل جديد إلى الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى (١٩٧٥م)، ص(٧).

(١١٧) تمهيد الفلسفة، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة (١٩٩٤م).

(١١٨) السفسطائيون: ظهروا في بلاد اليونان في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد، ولفظ سفسطائي Sophos يعني في اليونانية الحكيم الحاذق، ومن أفكارهم: القول بعدم وجود حقيقة، فخصصوا أنفسهم للبلاغة والسياسة، وقالوا: إن لم تكن هناك حقيقة تعرف وتعلم، فأمامنا باب الاستمالة والتأثير في الناس، وإن لم يكن حق وباطل في ذاتهما فهناك طرق الإقناع، ومن هنا سلكوا طريق البلاغة. (ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة – مصر، طبعة (١٩٣٦م)، ص(٥٧ وما بعدها)، قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين وزكي نجيب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة – مصر، الطبعة الثانية (١٩٣٥م)، ص(١٠٠)، المعجم الفلسفي، كمال صليبا، ص(٦٥٨ وما بعدها)).

(١١٩) مدخل جديد إلى الفلسفة، عبد الرحمن بدوي. ص(٨).

نقلًا عن أول كتاب الجدل، يقول الكندي: "قال الحكيم أرسطاليس عندما ابتدأ كتاب الجدل: إنَّ علم كل شيء ينظر فيه يقع أو (ينطوي) تحت الفلسفة، التي هي علم كل شيء".[١٢٠]

وقد استمر هذا المعنى المتسع للفلسفة، والذي يعني المعرفة العامة التي تضم –حسب قول شيشرون–: "الأشياء الإلهية والإنسانية، كما تشمل كل المبادئ والعلل لكل حادث خاص"[١٢١] حتى أوائل العصر الحديث، "حين بدأت العلوم تنفصل عن الفلسفة قاطعة شوطًا بعيدًا، خاصةً باعتبارها منهجًا مختلفًا قائمًا على الملاحظة والتجربة، وليس على مجرد النظر العقلي أو التأمل".[١٢٢]

ففي أول القرن السابع عشر ميلادي ستستقل الفيزياء؛ لأنها لا ينبغي أن تستند إلى مقولات ميتافيزيقية، بل إلى التجربة والملاحظة وحدهما دون أية فروض ميتافيزيقية أو دينية، وفي القرن التاسع عشر ميلادي ستستقل العلوم الحيوية (الطب، التشريح)، وفي القرن العشرين، سينفصل علم الاجتماع عن الفلسفة بفضل "أوجست كونت"، ليصبح علمًا وصفيًّا يُعنى بدراسة الظواهر الاجتماعية.[١٢٣]

فبعدما كان العلم والفلسفة في القدم شيئًا واحدًا، انفصلا حتى صارت العلوم تبحث في كل ما هو مادي بحت، لتشق الطريق بعيدًا عن الفلسفة التي التصقت بكل ما هو ميتافيزيقي ونظري تأملي.

---

(١٢٠) رسائل الكندي الفلسفية، الكندي. تحقيق: عبد الهادي أبو زيدة، دار الفكر العربي، مصر، طبعة (١٣٦٩هـ–١٩٥٠م).

(١٢١) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى. ص(٤٤).

(١٢٢) فلسفة الفلسفة، رجب بودبوس. الدار الجماهيرية، بنغازي – ليبيا، الطبعة الأولى، ج(٢)، ص(١٥).

(١٢٣) ينظر: الجديد في الفلسفة، عبد الرحمن بدوي. ص(٨–٩).

وربما كان لهذا الانفصال أثر على تقسيم الفلسفة بين الماضي والحاضر، "فأقدم تصنيف للعلوم الفلسفية هو تصنيف أفلاطون؛ حيث فرَّق بين ثلاثة علوم؛ الأول علم الجدل، والثاني العلم الطبيعي، والثالث علم الأخلاق، أمَّا الجدل، فيشمل النظر في العلم الإنساني وفي مسائل ما بعد الطبيعة، التي تتناول البحث في طبيعة الوجود ككل وفي المعقولات الأولى، والعلم الطبيعي يشمل: علم الطبيعة، والفلسفة الطبيعية، وعلم النفس، وأما علم الأخلاق فهو العلم الذي يبحث في السلوك الإنساني".[١٢٤]

هذا بالنسبة لتقسيم أفلاطون لمباحث الفلسفة، "أمَّا الباحثون فلهم طرائق متعددة في تقسيم الفلسفة؛ فبعضهم يقسمها باعتبار الغاية منها[١٢٥] إلى: فلسفة نظرية غايتها المعرفة والعلم فحسب، وفلسفة عملية غايتها العمل والعلم وسيلة له، والمنطق مقدمة لابد منها للبحث في هذا الضرب أو ذاك، والقسم الأول يشمل الفلسفة الطبيعية، والقسم الثاني يشمل: فلسفة الأخلاق، والفلسفة المنزلية، والفلسفة السياسية أو المدنية".[١٢٦]

وهناك من قسمها تقسيمًا آخر؛ حيث جعل من مباحث الفلسفة ثلاثة أقسام:
١) ما بعد الطبيعة أو ما وراء الطبيعة: وقد أطلق عليه الفلاسفة أسماء شتَّى؛ فقد سماه الفيلسوف الألماني "وولف" (أنطولوجيا) أو علم الموجودات حقًا؛ تمييزًا له عن

---

(١٢٤) مقدمة في الفلسفة العامة، يحيى هويدي. دار الثقافة، القاهرة – مصر، الطبعة التاسعة (١٩٨٩م)، ص(٦١).

(١٢٥) هذا التقسيم ذهب إليه كذلك الفلاسفة العرب والمسلمون، أمثال ابن سينا والخوارزمي وغيرهما. (ينظر: عيون الحكمة، ابن سينا، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت – لبنان، الفصل الأول في الحكمة وأقسامها، ص(١٦ وما بعدها)، ومفاتيح العلوم، الخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ص(١٥٣. وما بعدها).

(١٢٦) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، ص(٤٥–٤٦).

الظواهر التي تدرك بالحواس، وأطلق عليه "إدوارد هيرتمان" –حينما بحث في مسائله– (ما لا يُحَسّ) كما عُرِف عند فلاسفة المسلمين باسم (الإلهيات).[١٢٧]

يقول الخوارزمي: "ومنه ما الفحص فيه عما هو خارج عن العنصر والمادة، ويسمَّى: الأمور الإلهية، ويسمى باليونانية: ناولوجيا".[١٢٨]

واسم ما بعد الطبيعة جاء متأخرًا، "أطلقه أحد المتأخرين من المشائين عندما همَّ بنشر آثار "أرسطو" في منتصف القرن الأول قبل الميلاد، ووضع أبحاثه الفلسفية الميتافيزيقية بعد دراساته في العلوم الطبيعية، ودلَّ ما بعد الطبيعة على العلم الذي يلي الطبيعة في الآثار الأرسطية؛ فجاءت التسمية عَرَضًا ثم اعتبرت بعد ذلك صحيحة، ومن الجائز كذلك أن يكون اسم ما بعد الطبيعة دالًا كذلك على موضوع دراساته، بمعنى أنه يبحث فيما وراء الظواهر المحسوسة".[١٢٩]

٢) الفلسفة الطبيعية: وهي تعني النظر في المحسوسات وظواهرها[١٣٠]، أو النظر في الأشياء التي لها عنصر ومادة –حسب تعبير الخوارزمي[١٣١]– ويشمل ذلك علم الفيزياء، والكيمياء، والطب وغيرها.

٣) الفلسفة الإنسانية: "وموضوعها الإنسان من نواحيه النفسية المعنوية المختلفة"[١٣٢]، ويشمل: "علم النفس، والأخلاق، والمنطق، والجمال، وفلسفة

---

(١٢٧) فلسفة الفلسفة، رجب بودبوس، ج(٢)، ص(٢٠).

(١٢٨) مفاتيح العلوم، الخوارزمي. ص(١٥٣).

(١٢٩) مقدمة في الفلسفة العامة، يحيى هويدي، ص(٦٢).

(١٣٠) فلسفة الفلسفة، رجب بو دبوس. ج(٢)، ص(١٣).

(١٣١) مفاتيح العلوم، الخوارزمي. ص(١٥٣).

(١٣٢) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، ص(٤٦).

القانون، والتاريخ، وعلم الاجتماع".[١٣٣]

بعد هذه الجولة السريعة في تاريخ الفلسفة وأقسامها، تبيَّن لنا أنَّ علم الأخلاق جزء متصل بالفلسفة منذ بدايتها؛ فهو يدخل في الفلسفة الإنسانية التي هي جزء من الفلسفة العامة.[١٣٤]

فمكانة علم الأخلاق إذن من الفلسفة هي بمثابة الجزء من الكل، فهو غصن الدوحة الوارقة الظلال، التي تؤتي أكلها كل حين، وتفيد الإنسانية فائدة لا قَدْر لها.[١٣٥]

فالفلسفة هي الأم الكبرى لكل العلوم الإنسانية بما فيها الأخلاق، ولذلك نجد أن هناك نوعًا من الاتصال والترابط بين بعض تلك العلوم الإنسانية والأخلاق، بل إن بعض الفلاسفة يمهدون بحوثهم الأخلاقية ببعض تلك العلوم، وعلى رأسها علم النفس.

من هذا المنطلق علينا –لإتمام هذا المطلب الذي تبينت لنا فيه مكانة الأخلاق من الفلسفة– أن ندرس علاقة الأخلاق بعلم النفس، باحثين عن طبيعة تلك العلاقة، هل هي علاقة تكامل وترابط أم علاقة تنافي وتضاد؟

---

(١٣٣) تأملات في فلسفة الأخلاق، منصور علي رجب، ص(٤٦).

(١٣٤) من الشائع اليوم استخدام الفلسفة العامة، التي تشير إلى مجموعة المسائل الفلسفية المتعلقة بعلم النفس والمنطق والأخلاق وعلم الجمال، لكنها لا ترجع لأي مجال من هذه المجالات على حده، فهي تهتم بطبيعة المعرفة، وقواعد التفكير، والله والروح، وعلاقة المادة بالحياة والوعي. (تبسيط الفلسفة، رجب بو دبوس، الدار الجماهيرية، بنغازي – ليبيا، الطبعة الأولى، ص(١٩–٢٠)).

(١٣٥) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى. ص(٤٨).

▪ الأخلاق وعلم النفس:

يبحث علم النفس في قوى: الإحساس، الإدراك، الحافظة، الذاكرة، الإرادة، وحريتها، الخيال والوهم، الشعور، العواطف، اللذة، الألم... محاولًا الكشف عما إذا كان ثمة قوانين تحكم هذه القوى وعلاقة النفس بالبدن وتبادل الفعل والانفعال.[١٣٦]

فعلم النفس إذن يبحث الإنسان من الجهة العقلية والخُلُقية؛ فمن الناحية العقلية يبحث الحياة العقلية قابلة أم فاعلة، ومن الناحية الخلقية يبحث في الشعور بكل مظاهره.[١٣٧]

ومن هذا المنطلق كان لعلم النفس علاقة وطيدة بالأخلاق، حتى قال "سانتهلير": "بدون المشاهدة السيكولوجية لا يتحقق علم الأخلاق أو يكون تحكميًّا".[١٣٨]

فمباحث علم النفس لا يَستغني عنها دارس علم الأخلاق؛ ليُهدى للتقدير السديد والحكم الصحيح على الأعمال التي تتأثر بهذه القوى النفسية المختلفة[١٣٩]، فعلم النفس بتحاليله المضبوطة –حسب تعبير "سانتهلير"– يجب أن يكون دليلنا الوحيد، ولنا أن نضع فيه كل ثقتنا.[١٤٠]

كما لا يخفى على أي دارس وهو يبحث في كتب علم الأخلاق، أو في الكتب

---

(١٣٦) تبسيط الفلسفة، رجب بو دبوس. ص(٨٢–٨٣).

(١٣٧) ينظر: مبادئ الفلسفة، أ.س.رابوبرت. ترجمة: أحمد أمين، ص(٢٨–٣٠).

(١٣٨) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطو طاليس، ترجمة: أحمد لطفي السيد، ج(١)، ص(٩).

(١٣٩) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، ص(٤٩).

(١٤٠) ينظر: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطو طاليس. ترجمة: أحمد لطفي السيد، ج(١)، ص(١١).

التي تتحدث عن الأخلاق، أنها تتناول علم النفس بالبحث، أو –إن صحَّ التعبير– تضع فصولاً ومباحثَ للحديث عن النفس وما يتعلق بها.

فكان الفلاسفة الأخلاقيون يقدِّمون بين يدي بحوثهم وتأليفهم بحوثًا أخرى في علم النفس؛ هذا "أرسطو" وضع قبل كتابه في الأخلاق كتابًا في علم النفس سماه (النفس)، وقد شرحه "أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد" الفيلسوف الإسلامي المعروف، كما بدأ "مسكويه" كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) بفصلٍ ممتعٍ في النفس الإنسانية وطباعها وقواها المختلفة، وهكذا صنع "الغزالي" في كتابه (إحياء علوم الدين).[١٤١]

فعلم النفس والأخلاق يلتقيان من حيث كونهما يبحثان في الإنسان؛ فالأول يبحث في النفس الإنسانية، والثاني يبحث في السلوك الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

وعليه نجد أن البحث في الأخلاق قد شغل فكر الفلاسفة؛ فأصبح من أهم المباحث التي تتناولها الفلسفة بالدراسة؛ فانصبت جهودهم في البحث عن مفهوم الفضيلة والسعادة، وغيرها من المباحث الأخلاقية التي ترتبط بحياة الإنسانية.

بعد دراسة الأخلاق في علاقتها بالدين والفلسفة، يتضح لنا أنَّ الأخلاق والدين كلٌ لا يتجزأ، فهما يسيران معًا لضبط السلوك الإنساني، وحث الناس على فضائل الأعمال؛ فالدين في جانبه العملي لا يخلوا من قوانين أخلاقية يبثها في نفوس معتنقيه، منظمًا بذلك علاقة الفرد بربه وبغيره من الخلق، وبهذا تتحد الأخلاق والدين في الدعوة إلى القيم السامية.

---

(١٤١) ينظر: مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى. ص(٥٠).

وإذا انتقلنا إلى علاقة الأخلاق بالفلسفة، سيتبين لنا أن الأخلاق جزء لا يتجزأ من المباحث الفلسفية، وأن الفلاسفة على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم قد اعتنوا بدراسة الأخلاق؛ فاتجهوا للبحث في الفضيلة وسبل السعادة.

وجماع القول في هذا الفصل ، أن علم الأخلاق علم معياري، يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني بوضع قواعد أخلاقية ومُثلًا عليا، تكون هي القاعدة التي نبني عليها معرفة الخير والشر، على عكس ما ذهب إليه الفلاسفة الوضعيون، الذين جعلوا منه علمًا وصفيًّا لا دخل له بتقويم السلوك الإنساني.

فغاية علم الأخلاق وضع حلول نظرية للمشكلات الأخلاقية ومحاولة بعثها في النفوس البشرية، مما يجعل من علم الأخلاق علمًا نظريًّا وعمليًّا في آن واحد؛ فهو نظري حين يبحث في الأخلاق، ويضع قواعد السلوك، ومقاييس الخير والشر، ويجيب عن الإشكالات التي تشغل الفكر الإنساني، وعملي حين يحاول بعث النفس على تطبيق تلك القواعد، فتكون الأخلاق العملية المعيار الذي يعرف به أثر الأخلاق النظرية في الحياة الواقعية.

هذه الحياة تخضع بدورها للأخلاق والدين باعتبارهما منظومتين متساندتين، فرغم أن التاريخ الإنساني قد عرف نظمًا مبنية على العبادات الدينية فقط، ونظمًا أخرى قوامها الأخلاق، لكن يبقى الدين والأخلاق متداخلَين من الناحية النظرية، فالدين عندما يضع التشريعات التي تنظم العلاقات بين الناس، فهو في هذا الجانب يكون قريبًا من الأخلاق، والأخلاق كذلك عندما ترسم طريق المعاملة الإلهية تكون قريبة من الدين، فهما يكونان لحمة واحدة.

لكن، وبالرغم من ذلك ذهب بعض التنويريين أمثال "فولتير" و"ديردو"

و"هورباخ" إلى القول بضرورة فصل الدين عن الأخلاق لأسباب موضوعية، ارتبطت أحيانًا بالخرافات التي ميزت العقائد المسيحية والصراعات الدينية، وأحيانًا أخرى بالانحلال الخلقي الذي عرفه بعض رجال الكنيسة، فلمَّا كان الدين غير مُقنع –حسب هؤلاء– كان لزامًا فصل الدين عن الأخلاق وعن الحياة العامة للمجتمع.

ومما تمَّ عرضه أيضًا، يمكن القول أنَّ الأخلاق من أهم مباحث الفلسفة، التي اعتنى بها الفلاسفة على مرِّ العصور؛ فهي جزء لا يتجزأ منها، وفرع من فروع الفلسفة الإنسانية التي تُعنى بدراسة الإنسان من نواحيه المعنوية المختلفة؛ فالأخلاق تشكِّلُ –إلى جانب الفروع الأخرى للفلسفة الإنسانية– لحمة واحد، قد تختلف من حيث النتائج لكنها تتفق من حيث موضوع البحث.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

لماذا هذا الكتاب؟! ١٠

مقدمة

مقدمة ١٢

أهمية الموضوع ١٤

دوافع اختيار الموضوع ١٥

إشكالية البحث ١٥

خطة البحث ١٦

منهجية البحث ١٧

الدراسات السابقة ١٨

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول

مقدمات في علم الأخلاق

مقدمات في علم الأخلاق ٢١
المبحث الأول: تعريف علم الأخلاق ٢٢
المطلب الأول: تعريف علم الأخلاق باعتبار المركب الإضافي ٢٢
المطلب الثاني: تعريف علم الأخلاق ٣١
المبحث الثاني: علم الأخلاق موضوعه وغايته ٣٧
المطلب الأول: موضوع علم الأخلاق ٣٧
المطلب الثاني: غاية علم الأخلاق ٤٠
المبحث الثالث: الأخلاق بين النظر والعمل ٤٣
المطلب الأول: الأخلاق النظرية ٤٣
المطلب الثاني: الأخلاق العملية ٤٥
المبحث الرابع: الأخلاق بين الدين والفلسفة ٤٨
المطلب الأول: الأخلاق والدين ٤٨
المطلب الثاني: الأخلاق والفلسفة ٦٠

الفصل الثاني

الأخلاق في الأديان السماوية

الأخلاق في الأديان السماوية ٧٢
المبحث الأول: الأخلاق في اليهودية ٧٣

الموضوع	الصفحة

المطلب الأول: المصدر الأخلاقي في الفكر اليهودي ٧٣
المطلب الثاني: الأخلاق في التوراة ٨٩
المطلب الثالث: الأخلاق في التلمود ١٠٩
المبحث الثاني: الأخلاق في المسيحية ١٢٢
المطلب الأول: المصدر الأخلاقي في المسيحية ١٢٢
المطلب الثاني: الأخلاق في العهد الجديد ١٢٨
المطلب الثالث: خصائص الأخلاق في المسيحية ١٤١
المبحث الثالث: الأخلاق في الإسلام ١٤٧
تمهيد: الأخلاق في العصر الجاهلي ١٤٨
المطلب الأول: الأخلاق في القرآن الكريم ١٥٢
المطلب الثاني: الأخلاق في السنة النبوية المشرفة ١٦٩
المطلب الثالث: الأخلاق الإسلامية والعلاقة مع الآخر ١٨٦

الفصل الثالث

الأخلاق في الفلسفة الغربية

الأخلاق في الفلسفة الغربية ١٩٦
المبحث الأول: الأخلاق في الفلسفة اليونانية ١٩٧
المطلب الأول: الأخلاق عند سقراط ١٩٧
المطلب الثاني: الأخلاق عند أفلاطون ٢١١

الموضوع	الصفحة

المطلب الثالث: الأخلاق عند أرسطو ٢٢٢

المبحث الثاني: الأخلاق في الفلسفة الهلنستية ٢٣٣

المطلب الأول: الأخلاق عند أبيقور ٢٣٣

المطلب الثاني: الأخلاق عند الرواقيين ٢٤٤

المبحث الثالث: الأخلاق في الفلسفة الحديثة ٢٥٤

المطلب الأول: الأخلاق في الفلسفة النفعية ٢٥٤

المطلب الثاني: الأخلاق في الفلسفة الوضعية ٢٦١

خاتمة ٢٧٤

المصادر والمراجع ٢٧٩

الفهرس ٢٩٤

لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

for Studying Atheism and Contemporary Issues of Faith